

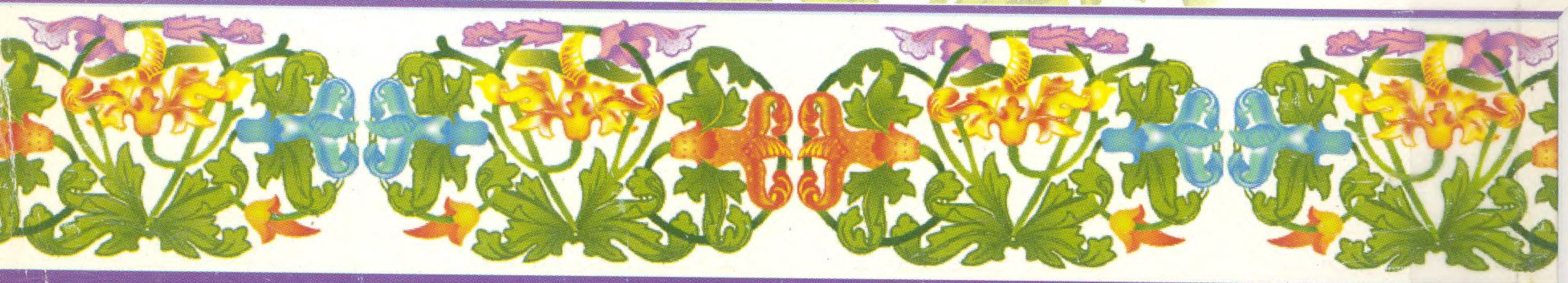
رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية
(١٣)

الواقعية الإسلامية

في روايات نجيب الكيلاني

دراسة نقدية

الدكتور حلمي محمد القاعود



دار البشير

الواقعية الإسلامية

في روايات نجيب الكيلاني

الطَّبْعَة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦/٢/٢٣٠)

رقم التصنيف	: ٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه	: محمد حلمي القاعود
عنوان المصنف	: الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني : دراسة مقارنة
رؤوس الموضوعات	: ١- الرواية العربية - دراسة ونقد ٢-
رقم الإيداع	: (١٩٩٦/٢/٢٣٠)
الملاحظات	: عمان : دار البشير للنشر

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار البشير

ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس : (٦٥٩٨٩٣) تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

رابطـة الأدب الإسـلامي العـالمية
مكتب الدول العربية
(١٣)



الواقعية الإسلامية
في روايات نجيب الكيلاني

دراسة نقدية

الدكتور حلمي محمد القاعود

دار البشير



الإهداء

إلى المجاهد الكبير:

علي عزت بيجوفيتش!

تآمر عليك الغرب، وخذلك كثير من المسلمين!

وحسبك الله

المؤلف

استهلال

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد :

فإن الأدب الإسلامي، بوصفه حركة تجديد لأدبنا العربي المعاصر، وآداب الشعوب الإسلامية الأخرى، يحتاج إلى المزيد من الدراسات والبحوث التطبيقية التي تبرز خصائصه وملامحه، وتساعد على تقديمه للقراء بصورة ساطعة ومركزة. ولعل المهتمين بالأدب الإسلامي أسرفوا في مسألة التنظير وجاء معظم كلامهم متشابهاً، مع بعض الخلافات الهامشية والجزئية.. ولكن الدراسة التطبيقية ظلت متواضعة المستوى كماً وكيفاً، وهو ما يفرض أن ندعم هذا الجانب الذي يحتاج بالضرورة إلى بذل الجهد ومعاناة المشقة في قراءة النص الأدبي الإسلامي، واستخلاص خصائصه وأبعاده الموضوعية والفنية.

بالطبع، لن ينتظر الأديب المسلم من ناقد أو باحث لا يؤمن بالأدب الإسلامي أن يتصدى لقراءة إنتاجه أو دراسته لأن هذه مهمة الناقد الأدبي المسلم.. وهو ما يعني أن ينهض الأدباء المهتمون بالأدب الإسلامي، والحريصون على انتشاره وانتصاره، بدراسة الآثار الأدبية التي ينتجها أدباء إسلاميون وتقويمها، سعياً للتجويد والإتقان، فضلاً عن التعريف والتقديم إلى جمهور القراء.

إن «نجيب الكيلاني»، صاحب الروايات موضوع هذه الدراسة، من أغزر كتابنا المعاصرين إنتاجاً، وأجودهم حرفة، وأصفاهم تصوراً، ومع ذلك ظل مُهملاً من جانب النقاد والباحثين لفترات طويلة، في الوقت الذي كان فيه المهيمنون على الساحة الأدبية يغدقون اهتمامهم نقداً ودراسة وتعريفاً على كتّابٍ أقل موهبة وأدنى

مستوى وأسوأ رؤية، وسبب ذلك بُعدهم عن الإسلام أو ازدراؤهم له أو تجاهلهم إياه أو انتماؤهم إلى أيديولوجيات غربية أو مفاهيم ناشزة عن التصور الإسلامي..

وقد آن الأوان للاهتمام بأديب مثل «نجيب الكيلاني» وقف حياته على إنتاج الأدب الإسلامي روايةً وقصةً قصيرةً وشعراً ومسرحاً وبحثاً ومقالة.. حقاً، رأينا بعض البحوث والدراسات التي قام أدباء وباحثون أكاديميون من العرب والمستشرقين، تتناول بعض أعماله بالبحث والدرس والتقويم، ولكن ما زالت أعمال «نجيب الكيلاني» تحتاج إلى المزيد من القراءة، لأن الرجل يقدم المزيد من الأعمال، ولأن إنتاجه وبخاصة في الرواية يمثل تطوراً مهماً في حركة الأدب الإسلامي ومستواه.

لقد سبق لي أن كتبت عن بعض أعمال نجيب الكيلاني، مثل: «ليالي تركستان» و«رحلة إلى الله» «وعمر يظهر في القدس»، ولكن ما كتبته ليس كافياً، وأعترف بأن هناك تقصيراً من جانبي في الميدان التطبيقي بصفة عامة، لأسباب شتى، جعلتني أقدم الكتابة في موضوعات أخرى على الكتابةفيه، وأحسبني بإذنه تعالى وحوله، سأحاول التركيز في الفترة القادمة على الدراسة التطبيقية لأعمال أدبائنا الإسلاميين.

وفي الصفحات التالية تناول لبعض روايات «نجيب الكيلاني»، رأيت أنها تمثل ظاهرة موضوعية وفنية، وتشكل ما أطلقتُ عليه «الواقعية الإسلامية».. فقد كتبها المؤلف في فترة زمنية قصيرة نسبياً ونشرت في شهور متقاربة، وعبرت موضوعاتها عن قضايا راهنة وظواهر طارئة، ومثلت شخوصها نماذج إنسانية حيّة، وقدّم بناؤها معالم فنٍّ مُحكَم يحقق الخصوصية الإسلامية للأدب العربي المعاصر.

لقد تناولت الدراسة روايات: اعترافات عبد المتجلي، امرأة عبد المتجلي، قضية أبو الفتوح الشرقاوي[1]، ملكة العنب، من حيث البيئة الروائية والموضوع الروائي، والشخوص والحبكة، والأسلوب واللغة .. وسبق ذلك تمهيد حول «الواقعية الإسلاميـة» وعلاقتها بأدب «نجيب الكيلاني» ورواياته، من خلال رصدٍ موجز لأهم

(١) استخدم المؤلف اسم «أبو الفتوح» و«أبو المجد» و«أبو سالم» على صيغة البناء الدائم أو المركب المزجي ــ لذا آثرنا إبقاءها مبنية على مدى الدراسة دون إعرابها.

الإطارات التي تضم أعماله الروائية..

إن هذه الدراسة حاولت الدخول إلى موضوعها مباشرةً، وآثرتْ لغةً واضحةً مستقيمةً، تنأى عن التقعر أو التنطع الذي لجأت إليه بعض الدراسات الأدبية المعاصرة حيث الغمغمة أكثر من الإبانة، والغموض أقوى من الشفافية، والتعقيد أشد من التبسيط..

وأسال الله أن يكون فيما كتبت، بعض الفائدة، وهو الهادي إلى سواء السبيل،

حلمي محمد القاعود

الرياض في ٦ رجب ١٤١٥ هـ

٨ من ديسمبر ١٩٩٤م

تمهيد

الواقعية الإسلامية
وأدب نجيب الكيلاني

يعد نجيب الكيلاني (١٩٣١-١٩٩٥م) الروائي الإسلامي الأول في اللغة العربية، حيث قدم للمكتبة العربية عدداً كبيراً من الروايات والقصص القصيرة، وهي غالباً محكومة بالتصوّر الإسلامي وصادرة عنه ـ ومن خلال هذا الإنتاج القصصي الغزير استطاع أن يقدم النموذج الإسلامي في الرواية والقصة.

وقد مرّ إنتاجه الأدبي الروائي بمراحل ومستويات لمدة يمكن أن نضعها في أربعة إطارات:

الاطار الأول: ويمثل الرّواية الواقعية الرومانسية، ويضم العديد من رواياته، وقد عبّر من خلالها عن هموم الناس والعلل الاجتماعية المتفشيّة بينهم، مثل الفقر والجهل والأمراض المتوطنة والسلبية والتخلّف، ومَزَجَ ذلك بالعواطف المشبوبة والخيالات الحالمة والآمال المجنّحة، ويمكن أن نرى أمثلة على ذلك من رواياته: الطريق الطويل، الربيع العاصف، الذين يحترقون في الظلام، عذراء القرية، حمامة سلام، طلائع الفجر، ابتسامة في قلب الشيطان، ليل العبيد، حكاية جادالله..

الإطار الثاني: ويمثل الرواية التاريخية، التي تستلهم السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بصفة عامة، وقد استدعى التاريخ واستلهمه ليقدّم النماذج الإنسانية المشرقة من حضارتنا، ويرصد جهاد الآباء في شتّى جوانب الحياة، دفاعاً عن الدّين وسعياً لتأسيس مجدٍ غير مسبوق، وفي بعض الأحيان كان يستدعي التاريخ ليعالج من خلاله قضايا راهنة أصابت الأمة بالإحباط واليأس، ويوقظ به الأمل في نفوس الأجيال الجديدة عن طريق إحياء الهمة وبعض العزيمة وخلق الإصرار، وفي كل الأحوال، فإن استلهام التاريخ في الرّواية عند «نجيب الكيلاني»، كان إبرازاً لمعطيات الإسلام العظيمة، وإمكاناته الهائلة في تحويل الإنسان المسلم إلى صانع حضارة وباني مجدٍ وجندي ظافرٍ في معاركه ضد الشرّ والتوحش، ويمكن أن نجد عدداً كبيراً من رواياته التي عبرت عن ذلك مثل: نور الله، قاتل حمزة، أرض الأنبياء، دم لفطير صهيون،

مواكب الأحرار أو نابليون في الأزهر، اليوم الموعود، النداء الخالد، أرض الأشواق، رأس الشيطان، عمر يظهر في القدس.

الإطار الثالث : ويمثل الرواية التي يمكن تسميتها بالرواية الاستشرافية التي عبر فيها عن هموم المسلمين خارج حدود العالم العربي (دول آسيا الوسطى التي كانت أو مازالت تحت الستار الحديدي الشيوعي من الاتحاد السوفياتي والصين ـ إثيوبيا ـ اندونيسيا ـ نيجيريا)، واستطاع أن يكشف للعالم مأساة دامية أصابت ملايين المسلمين المنسيين الذين لا يتحدث عنهم أحد إلا نادراً، ولا يعرف عنهم المسلمون في العالم العربي إلا القليل، وفي الوقت ذاته توقع انتصارهم وتحررهم، وهو ما حدث بالفعل في أكثر من مكان وبخاصة في الدول الإسلامية التي استقلت أو تحاول الاستقلال بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وتعدّ رواياته : ليالي تركستان، الظل الأسود، عذراء جاكرتا، عمالقه الشمال، من أشهر رواياته في هذا الإطار.

الإطار الرابع : ويمثل الرواية عند نجيب الكيلاني في المرحلة الراهنة، وهي التي نطلق عليها الواقعية الإسلامية، ويعبر فيها عن القضايا الاجتماعية التي تهمّ جموع المستضعفين في الوطن، ويبرز فيها ما يلقاه الناس من ظلمٍ وقهرٍ واضطهاد، ويتخذ من تفاصيل الحياة اليومية والاجتماعية عناصراً أساسية يرتكز عليها في بناء هذه الروايات، وأيضاً فإنه يطرح عبر سطورها رؤية الجيل الجديد للأحداث، وموقفه من قضايا الحرية والعدل والأمن والرخاء والمستقبل، وتُعد رواياته الأربع أو رباعيته التي أنتجها على مدى عامين تقريباً، ونشرت على مدى شهورٍ متقاربة، وهي : اعترافات عبد المتجلي، امرأة عبد المتجلي، قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ملكة العنب[1]، من أفضل النماذج

---

(١) أشار الكاتب في نهاية الرواية الرابعة (ملكة العنب)، إلى أنه أتمها في السابع من صفر ١٤١٢هـ الموافق ١٧ أغسطس ١٩٩١م، وكان قد أشار في آخر رواية (امرأة عبد المتجلى) إلى إتمامها في ١٩٩٠/٧/٢٥م، مما يعني أن كتابة الروايات الأربع استغرق سنتين تقريباً، وقد صدرت الأولى (اعترافات عبد المتجلى) عن مؤسسة الرسالة، بيروت عام ١٤١٢ هـ ـ١٩٩١م. أما الثانية والثالثة (امرأة عبد المتجلى، وقضية أبو الفتوح الشرقاوي)، فقد صدرتا عن المؤسسة ذاتها عام ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م. كما صدرت الرواية الرابعة (ملكة العنب) عن دار=

وأبرزها في الدلالة على هذا الاطار، وهي موضوع دراستنا.

والواقعية الإسلامية تختلف بالضرورة عن الواقعية الأوروبية (الانتقادية والطبيعية)، والواقعية الاشتراكية (الماركسية)، وإن كانت هنالك أسس موضوعية وفنية قد تجمع بينها جميعاً..

فالواقعية الأوروبية واقعية نقدية تعنى بوصف التجربة كما هي، حتى لو كانت تدعو إلى تشاؤم عميق لا أمل فيه، في حين تحتّم الواقعية الاشتراكية أن يثبت الكاتب في تصويره للشرّ دواعي الأمل في التخلص منه فتحاً لمنافذ التفاؤل حتى في أحلك المواقف، ولو أدى إلى تزييف الموقف بعض الشيء[1].

أما الواقعية الإسلامية، فإنها ـ مع انتقادها للواقع ـ تنطلق في انتقادها من التصور الإسلامي الذي يكون دائماً منصفاً، فلا يبالغ ولا يهوّل، أيضاً لا يتحامل بسبب المغايرة في الانتماء، ولا يحبذ الصراع بين الطبقات كما يبتغي الواقعيون الاشتراكيون، فضلاً عن أن الأمل في الواقعية الإسلامية، هو أمل إيماني يقوم على أساس نُصرة الله في كل الأحوال، حياة وموتاً. إنها باختصار ترفض التشاؤم كما ترفض التفاؤل الذي يقوم على الخداع أو التزييف، ثم إنها تستقي مادّتها من الحياة الاجتماعية، ومشكلات العصر على إطلاقها، وتختار شخوصها من عامة المجتمع وجميع طبقاته، لأنها تعتقد بأن الخير والشر ليسا قاصرين على طبقة بعينها، ولكنهما موجودان في النفس البشرية، أيّاً كانت طبقتها أو انتماؤها الطبقي، وأن الإنسان يمكن أن يكون خيِّراً أو شرّيراً وفقاً لاختياره، وعوامل أخرى مؤثرة في هذا الاختيار من

= ابن حزم، بيروت، في في العام نفسه، أي إن الروايات الأربع نشرت جميعاً في عام هجري واحد هو عام ١٤١٢هـ، وترجع سرعة الإنتاج والنشر إلى تفرغ الكاتب للكتابة بعد إحالته على التقاعد عام ١٩٩١، واستقراره في قريته شرشابة غربية.

(١) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ت، ص٣٨١، وانظر : عبد الباسط بدر، مذاهب الأدب العربي ـ رؤية إسلامية، منشورات لجنة مكتبة البيت وشركة الشعاع للنشر، الكويت، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص٥٤.

قبيل التربية والتوجيه والقدوة والظروف المحيطة.. الخ، لذا؛ فإن الطبقة ليست هي العنصر الحاسم في الصراع بين الخير والشر، وإنما الإرادة الفردية ومكوناتها.. وهو ما يتسق مع التصور الإسلامي : «**فَألهمها فُجُورَها وتقواها * قد أفلحَ مَنْ زَكاها * وقد خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**»[1].

وإذا كانت الواقعية الانتقادية والواقعية الاشتراكية توجهان سهام نقدهما للطبقة الوسطى (البرجوازية) لأنها ظلمت الطبقة الدنيا، وأنزلت بها أسوأ أنواع القهر والغبن، عندما وصلت إلى السلطة[2]، فإن الواقعية الإسلامية، ومن خلال روايات نجيب الكيلاني، تنتقد الفئة الظالمة والأفراد الظالمين أيّاً كان انتماؤهم، إلى الطبقة العليا أو الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا، على السواء، فهناك من يوجّه إليهم الانتقاد ممن يُعدّون في الطبقة العليا أو الطبقة الوسطى (الحكام ـ الضباط ـ رجال الأعمال)، وهناك من يوجه إليهم الانتقاد من الطبقة الدنيا (العمال، الفلاحين، صغار التجار)، وهكذا فالشر موجود في كل الطبقات، والخير أيضاً.

والواقعية الإسلامية من هذا المنطلق تمثل الصياغة الفكرية والتطبيقية لمفهوم الأدب الإسلامي، في صورته المقبولة، والمؤثرة في مجال الرواية والقصة على وجه الخصوص، حيث تحقق الغاية الخلقية والفنية لعملية الإبداع الأدبي، وإذا كانت بعض التيارات الأدبية تعارض أن يكون للأدب غاية خلقية، فإن الواقعية الإسلامية لا يمكنها أن تتخلّى عن هذه الغاية التي ألحّ عليها كثيرون في الماضي والحاضر. لقد أكدّ «أوسكار وايلد» على الرسالة الخلقية للفن بالمعنى الواسع، وتعني هذه الرسالة لديه : مساعدتنا على فهم الحياة، وقد آمن بهذه الرسالة أفلاطون وأرسطو من قبل، ثم مونتاني وموليير من الفرنسيين، وبن جونسون ودكتور جونسون من الإنجليز[3].

إن التعبير عن هموم المظلومين والمقهورين والمستضعفين من عامة الناس يمثل لبّ

---

(١) سورة الشمس : ٨-١٠.

(٢) الأدب المقارن ، ٣٧٧.

(٣) محمود حامد شوكت، مقومات القصة العربية الحديثة في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤،ص١٤.

الرسالة الخلقية للواقعية الإسلامية، وهو ما ألح عليه كثيراً، أدب نجيب الكيلاني بعامة، ورواياته بخاصة، فالطبقة الدنيا المظلومة المقهورة المستضعفة، حاضرة في رواياته حضوراً مستمراً دائماً، ونماذج المظلومين والمقهورين والمستضعفين تملأ صفحات كثيرة في أدبه، إلى جانب الاهتمام أيضاً بالنماذج العادلة والقوية والظافرة وفق المفهوم الإسلامي. وهذا الاهتمام بقضايا المجتمع من خلال هذه النماذج أو تلك يأتي استجابة لتوجيه إسلامي كي نهتم بأمور المسلمين اليومية والاجتماعية[1].

ولعل اهتمام نجيب الكيلاني بحياة الفلاحين في القرية المصرية وما يجري لهم، وأيضاً تعبيره عن بسطاء المدينة وما يعانونه، يمثل ملامح استجابته للتوجيه الإسلامي بالاهتمام بأمور المسلمين الذي يترجم عنه في واقعيته الإسلامية ذات الرسالة الخلقية، وإذا أضفنا إلى ذلك تصديه بالانتقاد للفئة المتحكمة وفساد رجالها والمحيطين بها، وأيضاً انتقاده لانحراف الأفراد من العامة مع بيان سبب هذا الانحراف، فإن الصورة تكتمل في أذهاننا لأسلوب ومنهج الأدب الإسلامي في معالجة هموم المجتمع وقضايا الأمةومشكلاتها.

ومن الجدير بالذكر أن نجيب الكيلاني بذل جهداً تنظيرياً مهماً في هذا السياق، للتعريف بمفهوم الأدب الإسلامي وأبعاده، في عديد من الكتب والبحوث المنشورة، أهمها كتابان، أولهما «الإسلامية والمذاهب الأدبية»، وثانيهما «مدخل إلى الأدب الإسلامي»[2]، وفيهما يوضح علاقة الأدب بالدين، ومفهوم الالتزام الإسلامي في الأدب، ويقارن بين المذاهب الأدبية السائدة، ويعرض لمناقشة بعض القضايا التي تتعلق بالأدب الإسلامي وتثير العديد من التساؤلات، سواءً من المؤيدين للأدب الإسلامي أو المعارضين، مع إشارة لبعض الأدباء الإسلاميين في العصر الحديث أمثال : أحمد شوقي،وحافظ إبراهيم، ومصطفى صادق الرافعي، وأحمد محرم، وتقديم نماذج

---

(١) انظر : مذاهب الأدب العربي ـ رؤية إسلامية ، ٥٩.

(٢) صدر الكتاب الأول عن مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م، وصدر الثاني ضمن سلسلة كتاب الأمة، الذي تصدره دولة قطر عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، وكان رقمه في السلسلة «١٤».

معقولة للأدب الإسلامي، كما ركز على الدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية الفصحى في الكتابة والتعبير بوصفها البيان الأدبي الأرقى للأسلوب.

إن كفاح نجيب الكيلاني لتقديم الرواية أو القصة الإسلامية، يمثل انعطافة كبيرة في مسيرة الأدب الإسلامي، ليس في مواجهة أعدائه فحسب، بل في مواجهة بعض ضيقي الأفق الذين يرون في الأدب عموماً، ترفاً يجب أن يترفع عنه المسلمون، وما علموا أن العلاقة بين الأدب والدين علاقة حميمة. أو كما صورها هنري برجسون بأنها علاقة نسب، عندما قال : إن الفن ابن الدين[١]. ونسوا أو تناسوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستجيد الشعر ويستنشده، وكان يحث حسّاناً على استخدام شعره في معركته ضد المشركين، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعدّ أول ذواقةٍ للشعر وناقدٍ له من الخلفاء الراشدين.

ومهما يكن من أمر، فإن دخول نجيب الكيلاني إلى مجال الواقعية الإسلامية في الرواية، يعد نقلة أكثر تطوراً وعمقاً، لأنه يواجه المجتمع بمشكلاته المزمنة والمؤرقة مواجهة جادة ملتزمة، مع ما قد تجره عليه هذا المواجهة من متاعب شخصية واجتماعية تعود عليها منذ مطلع شبابه.

ثمة ملمحٌ أخيرٌ تختلف فيه الواقعية الإسلامية عن الواقعية الانتقادية والواقعية الاشتراكية، وهو الناحية الأسلوبية، فالواقعيون ـ بعامة ـ لايحبون المبالغة في العناية بالأسلوب، لأنه وسيلة لا غاية، والأهمية كلها للمنطق، وللطريقة التي تسود ترتيب الأحداث والتعبير عنها[٢].

والواقعية الإسلامية ـ فيما أتصور ـ تحرص على الأسلوب وتعنى به، لأنه يمثل ـ بطريقة ما ـ عناية باللغة وارتقاء بها، وسمواً ببيانها، وهو ما يعني في حقيقة الأمر، الحرص على قيمة جمالية كبرى من قيم البيان العربي، ولعل التفوق الأسلوبي لدى

---

(١) انظر : علي عزب بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، مجلة النور ومؤسسة بافاريا، الكويت ـ ألمانيا، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ص١٤٨.

(٢) الأدب المقارن، ٣٨٠.

بعض المشاهير، كان سبب شهرتهم في المجال الروائي، سواءً كانوا مخلصين للواقعية الانتقادية أو الواقعية الاشتراكية أو الرومانسية أو غيرها، بدءاً من مصطفى لطفي المنفلوطي حتى نجيب محفوظ،مروراً بآخرين من أمثال علي الجارم، محمد فريد أبو حديد، محمد سعيد العريان، محمد عبد الحليم عبدالله، عبد الحميد جودة السحار، فتحي غانم...

وقد اهتم نجيب الكيلاني بأسلوبه الروائي، الذي تحدثنا عنه في موضع آخر، اهتماماً كبيراً، ولعل ذلك يرجع إلى كونه شاعراً أيضاً، يملك القدرة على الأداء اللغوي الجيد، كما يملك معجماً غزيراً يتيح له فرصة التعبير الدقيق والمتسامي عن مختلف المشاعر والأحاسيس، والصور والمشاهد.

يبقى بعدئذ، أن نشير إلى أن الواقعية الإسلامية عند نجيب الكيلاني، تظل وفيّة للقضايا الإنسانية الكبرى التي تعني الإنسان المسلم في حاضره ومستقبله، وتترفع في الوقت ذاته عن القضايا المبتذلة والرخيصة التي تتسافل به أو تهبط به إلى درك الحيوانية حيث تبحث عن الإشباع الغريزي وحسب.

البيئة الروائية

يمثل الفضاء المكاني والمجال الزمني ركناً مهمّاً في البناء الروائي عند نجيب الكيلاني، وبخاصة في مرحلته الواقعية الإسلامية، حيث يُعطي كل من المكان والزمان دلالاتٍ تُسهم في بلورة الرؤية الروائية ـ إن صحّ التعبير ـ للشخوص والأحداث، وفهم القضايا الإنسانية التي يعيشها المجتمع، ويتفاعل معها، وينطلق من خلالها إلى تصور المستقبل أو الحلم به..

وإذا عرفنا أن الكاتب قد ارتبط بقريته (شرشابة) التي تقع في أعماق محافظة الغربية، ارتباطاً وثيقاً، مع أنه اغترب عنها عُمراً أطول من عمره الذي عاشه فيها، سواء بالعمل في القاهرة أو في الخليج، فإننا لن نستغرب أن تكون القرى التي جرت فيها حوادث رواياته الأربع (كفر أبو سالم ـ كفر علام ـ الربايعة ـ شنراق...) هي قرية (شرشابة) بصورة وأخرى، ولم يخف الكاتب أنها تقع في محافظة الغربية، وأنها قريبة من مدينة طنطا، وفي ذلك ما يعني أنه يتكئ على مكان مألوف لديه، خبرته به واسعة وشاملة، ولعل هذا ما جعله يقدم لنا القرية تقديماً جاهزاً دون أن يسهب في وصفها أو بيان معالمها، فهو يقدمها كأنها مألوفة لدينا نحن أيضاً ونعلم بيوتها وشوارعها وأشجارها ومسجدها وحقولها ومواشيها..

ومع أن القرية تبدو بسيطة منزوية في وسط الدلتا، وينتمي إليها معظم شخوص الروايات، إلا أنها حاضرة حضوراً قوياً في اللغة وطريقة التفكير والصورة التي يتعامل بها هؤلاء الشخوص.. وهذا الحضور القوي ينبئ عن دلالة أخرى للقرية حيث تصبح رمزاً عاماً للوطن أو الأمة كلها بأهلها وناسها وهمومها وعذاباتها وصراعاتها وطموحاتها..

إن الذين يقابلوننا في القرية عادةً هم من البسطاء الفقراء الباحثين عن لقمة العيش أو التواقين إلى العدل والإنصاف أو الحالمين بالإصلاح وتصحيح الانحراف لأن ذلك يمثل ضرورة لهم على المستويين الشخصي والجماعي (عبد المتجلي القصاص أو

الشيخ محمد مثلاً) حتى (أبو الفتوح الشرقاوي) المتقمص لشخصية العارف بالحقائق المتفوق على بقية أقرانه الذين لا يعرفون شيئاً، كان يحلم بالخروج من دائرة «الدونية» التي يحيا فيها أملاً في مستوى أفضل.

وفي القرية لن نجد فارقاً كبيراً بين الشخوص، فهم ينتمون إلى مستوى متقارب نفسياً واجتماعياً وروحياً على الأقل، حتى العمدة الذي يكون عادة أعلى مستوى مادياً واجتماعياً، فإن أعماقه مرتبطة بمجموع البسطاء الفقراء من خلال مشاركتهم مشكلاتهم ومناسباتهم، وإذا كان العمدة يبدو غالباً رمزاً للغطرسة والقهر، فإنه لدى «نجيب الكيلاني» يتحول في بعض الأحيان إلى صفوف المعارضة، والانتماء لجمهور الناس لأن ضميره الديني يجعله ينحاز إلى الحق والعدل، كما نرى عمدة «ملكة العنب».

وبصفة عامة، فإن حضور القرية في روايات الكيلاني يجعلها مسرحاً للمجتمع الإسلامي وشخوصه وحوادثه، مما يعني أن القرية تمثل صورة للأمة في حال تواضعها وهمومها ومشكلاتها، وفي حال تمردها على الظلم ورغبتها في الإصلاح،وإرادتها في مواجهة القوى القاهرة..

ولأمر ما، كان الأبطال المتمردون المصلحون الثائرون من القرية، وكان رموز الظلم والقهر والفساد من المدينة.. ولذا كانت القرية في مواجهة المدينة.. من القرية خرج عبد المتجلي للبحث عن الونش «لم يعد يتصور أن بالمدينة رجالاً، فجاء من أعماق الريف حاملاً سيف الإرادة الخرافية ليبحث عن المفقود، ويفضح المستور، ويكشف عن وجه المدينة القبيح..»[1] ومن القرية أعلن الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد عما يرتكبه زراع العنب في الربايعة من إثم وتقصير بعدم إخراج الزكاة.. وكان الشيخ محمد وأهل القرية قوى التصدي لجبروت السلطة وطغيانها، بل إن «أبو الفتوح الشرقاوي» اللص الكذاب، يتحول إلى ضحية مظلومة، ومن ثمّ إلى رجل صالح يسعى إلى الخير ومقاومة الشر.

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٣٠.

إن القرية تظل تحت كل الظروف رمزاً للأمان والطمأنينة والسماحة، مع كل ما يحدث لأهلها من مظالم وتعاسة، في مواجهة المدينة رمز الخوف والرعب والأنانية. ولنتأمل ذلك الحوار الذي يجري بين «أبو الفتوح الشرقاوي» وامرأته، بعد أن اختفى عن عيون الذين يطاردونه في القاهرة :

[همس :

– فيم تفكرين يا عبيطة؟.

– بيتنا الصغير في القرية ..

– ليس فيه ما يساوي نصف فرنك...[1]

– فيه الخير كله..

– إن ما يحز في نفسي يا قطيفة هو ترك الحمار وحده.. سيموت من الجوع.

– لن يتركه الجيران بدون أكل .. لكن

– ماذا ؟.

– دائماً أخاف من البندر.

– نحن في المحروسة يا هبلاء.

– الناس فيها غير الناس في قريتنا.

– كلهم خلق الله.

– وخلق الله ليسوا سواء.. أشعر أنهم بشر غيرنا يا أبو الفتوح.. أصبحت أكره كل من يلبسون البدلة.

– لماذا يا قطيفة؟.

– كانوا يضربونك دون رحمة..

(١) نصف الفرنك كان عملة معدنية سائدة في مصر إلى ما قبل عقدين من الزمان تقريباً، وكان أيامها يساوي قرشين، وقد اختفى الآن مع عملة القرش ذاتها التي ظل لها وجود اسمي فقط.

- غلطانة !! أصحاب البدل يصدرون الأوامر .. والمخبرون يضربون.. وهم يلبسون الجلابيب مثلنا.. ثم هؤلاء الذي أنقذونا وأتوا بنا إلى هذا المكان.. إنهم يلبسون البدل.. اللبس ليس كل شيء.. هزت رأسها قائلة :

- عندك حق...][1]

وهذا الحوار ينبئ عن خوف دفين لدى الريفي من المدينة، وأهلها الذي يلبسون «البدل» ويضربون البسطاء والمظلومين، وهو ما تلحّ عليه «قطيفة» من كلامها مع زوجها «أبو الفتوح» وتعبر عنه بأكثر من صورة دائماً أخاف من البندر» و«الناس فيها غير الناس في قريتنا» «وأشعر أنهم بشر غيرنا» وكانوا يضربونك بلا رحمة»، ومع أن زوجها يحاول أن يكون موضوعياً أو عادلاً في حكمه على أهل المدينة، إلا إنه يبدي انزعاجه وخوفه على «الحمار» الذي تركه وحيداً في القرية، لكن «قطيفة» تعلن أن الجيران لن يتركوه بدون أكل، وقبل ذلك تعبّر عن تمسكها ببيتها الخاوي في القرية، كأنها تقول : إن البيت الخاوي الذي (ليس فيه ما يساوي فرنك) ممتلئ غنى بمشاعر الجيران والناس هناك، فأهل القرية متضامنون متكافلون حتى مع الحيوانات، فهم لن يتركوا الحمار بدون طعام أو شراب. أما أهل المدينة فلهم شأن آخر (لا أحد يهتم بأحد، ولا يفشي واحد منهم السلام، والفتيات الجميلات يتسمن بدون سبب واضح، والنظرات الوقحة تلاحقهم (كذا؟)، وكلمات بذيئة تتطاير هنا وهناك يصعب معرفة مصدرها. والسيارات تتسابق في جنون...»[2].

وصورة المدينة بصفة عامة، والقاهرة بصفة خاصة، توحي بالضيق والإزعاج والقهر والضياع، مثل شوارعها التي تمتلىء بالصياح والباعة والعربات والحافلات والضجيج والأصوات المتنافرة[3]..

وكل شيء في المدينة له ثمن، لأنها بلا قلب ولا عاطفة «حتى قضاء الحاجة أصبح

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي ١٠١/١٠٢.

(٢) اعترافات عبد المتجلي، ٣٣.

(٣) تأمل تصوير الكاتب لميدان السيدة زينب وما يجري فيه : امرأة عبد المتجلي، ١١٦.

له ثمن، وأين؟ في أقدس الأمكنة..»، و«هذه المحروسة كل شيء فيها يباع ويشترى، ولا مكان للفقراء إلا العمل أو السرقة»[1].

ولكن المدينة تبدو في بعض الأحيان مطوية على بعض الخير «المحروسة ليست فساداً كلها، لكنها تطوي قلبها الحنون على الكثير من الخيرات والحنان..»[2].

إن المدينة تبدو لأبطال نجيب الكيلاني محط العذاب والتناقضات، والخير والشر، وذات ألف وجه ووجه، ولكن الخير فيها يرتبط بالبسطاء. وبأماكن العبادة ففي المساجد يجد الأبطال الإحساس بالراحة والاطمئنان، ويجدون هناك من الشيوخ والصحاب ما تهون بصحبتهم مشكلات الحياة ومصاعبها، وكان عبد المتجلي مثلاً عندما تضيق به السبل يقصد مسجد السيدة زينب هرباً من المتاعب أو سعياً لحل مشكلاته، فيجد عند صديقه «بيومي» عامل النظافة الأنس والمودة والمكان الذي يأويه (على سطح المسجد)، وإن لم يمنعه ذلك من انتقاد المدينة وما يسودها من قيم والتهكم عليها وعلى أهلها:

« هل ما زال دخول المرحاض عندكم برسوم؟.

ضحك بيومي، وأخذ يتحسس لحيته ويقول:

- ارتفعت أسعار كل شيء...[3]

ومع مظاهر الخير في المدينة التي تبدو محدودة ومتواضعة، تبقى الصورة العامة قرينة الشرّ والفساد، وموطن المافيا التي تتحكم في مصائر الناس، وتمارس الفجور والانحلال وامتصاص دماء الفقراء والمطحونين، وها هو عبد المتجلي يصف اجتماعاً للتجار الكبار في المدينة الإقليمية «لقد رأى في الحفل الساهر الذي شهده، أمارات التفسخ والفساد جهاراً، سمع بأذنيه ورأى بعينه مجموعة من المتآمرين يستغلون الفرصة للإثراء وتكديس الأموال بشتى الوسائل والحيل، آلمه أشد الألم أن يتصرفوا

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٣٥.

(٢) السابق، ٣١.

(٣) امرأة عبد المتجلي، ٤٤/٤٥.

وكأنهم أصحاب الرأي والأمر، وكأن الشعب رعية ذليلة تدين لهم بالطاعة والولاء، ولا يجرؤ أحد أن يرفع رأسه ويقول لهم : هذا ظلم.. هذا حرام، والكارثة أن ممثلي السلطة يحترمونهم، وييسرون لهم سبيل النهب، ويحرسونهم من الاعتداء أو حتى النقد البريء، بل إن نسبة كبيرة منهم أعضاء في المجالس الشعبية والبرلمان، والبعض الآخر يحتل مناصب رسمية...الخ»[1].

هكذا تبدو المدينة رمزاً لكل الرذائل والكوارث، ومصدراً للمصائب والنكبات، لذا نجد الشخوص في روايات نجيب الكيلاني تتعامل معها من الخارج، لا ينغمسون فيها غالباً إلا إذا كانوا من الانتهازيين أو المتسلقين أو الجلادين أو المنحرفين.. إن العناصر الخيرة في المدينة تبدو قليلة ومنزوية وزاهدة ومثالية كما نرى في شخوص الروايات...

أما القرية أو الريف، فيبقى رمزاً للطيبة والسماحة والأمان، وإن كانت تظهر على صفحته سلبيات التحول الاجتماعي والتغيرات الفكرية التي تصدرها المدينة أو تتسبب فيها.. وفي الوقت ذاته يظل أشرار الريف أقل خطراً من أشرار المدينة، ويبقى انحراف المنحرفين القرويين محدوداً بالقياس إلى نظرائهم في البندر

إن المكان في روايات نجيب الكيلاني يتناغم مع الأحداث والشخصيات ليُسهم في صُنع واقعية إسلامية متميزة.

الزمان في روايات نجيب الكيلاني التي بين أيدينا محدود ومعاصر لنا.

فهو يتناول فترة قصيرة تتراوح بين شهور (كما في ملكة العنب، وقضية أبو الفتوح الشرقاوي) وسنتين أو أكثر قليلاً (كما في اعترافات عبد المتجلي، وامرأة عبد المتجلي).

والفترة الزمنية الروائية تدور في أواخر الثمانينات بالنسبة لروايات ثلاث (اعترافات عبد المتجلي، امرأة عبد المتجلي، ملكة العنب) وفي زمن الحرب العالمية

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١٥٢ وما بعدها.

الثانية بالنسبة لرواية (قضية أبو الفتوح الشرقاوي).

وقصر الزمن الروائي في الرباعية له تأثيره في بنائها، حيث جعلها مركزه أو مكتنزة، لا مكان فيها للحشو أو الفضول، فضلاً عن كونه أعطاها عنصر الحيوية والتشويق في ظل وجود كمٍّ كبيرٍ من الأحداث والمواقف...

أما معاصرة الزمن الروائي فهي سلاح ذو حدين، ويستطيع الكاتب الموهوب أن يستخدمه استخداماً جيداً ليعالج قضايا مجتمعه الراهنة من جهة، وفي الوقت ذاته يبث الحياة في شخوصه أو أبطاله ليكونوا نماذج إنسانية حية تعيش طويلاً من جهة أخرى، وهذا ما نجح فيه نجيب الكيلاني إلى حد كبير، باستثناء بعض الثرثرة السياسية التي كان يغالبها في بعض المواضع[1].

أما إذا اكتفى الكاتب بمعالجة الأحداث المعاصرة دون احتفال ببقية العناصر الروائية، فإن عمله يظل محدود القيمة، لأنه مرتبط بفترة معينة، تتغير بعدها الظروف والأحداث، ولا يبقى منه إلا الذكرى التاريخية التي لا تمثل شيئاً بالنسبة للقارئ، حيث تكون الظروف الجديدة قد غيرت الظروف السابقة عليها أو عدلتها[2].. أما النموذج الإنساني الحيّ الذي شارك في الأحداث، فيبقى حياً دائماً في النفوس والقلوب التي تتلامس معه أو تلتقي به.

ولا ريب أن الفترة الزمنية المعاصرة حافلة بالكثير من الأحداث التي تحيط بنا وتضغط علينا بسلبياتها الكثيرة .. والعديد منها قد يدخل في دائرة المتغيرات، ولكن أهمها هو الذي يتعلق بحركة الإنسان وقيمته الإنسانية، وهو ما يكتسب قيمة مستمرة لا تهبط بتغير الظروف والأحوال.

فحرية الإنسان وحقه المشروع في الاعتقاد وقدرته على الاختيار ومقاومته للظلم

---

(١) انظر على سبيل المثال وصف عبد المتجلي لحفل التجار الذي أشرنا إليه قبل قليل : أمرأة عبد المتجلي، ١٥٢/١٥٣.

(٢) محمد يوسف نجم، فن القصة، ط٧، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩، ص١٥٦.

والتوحش ورفضه للقهر والتعذيب، أمور ليست مرتبطة بعصرٍ دون آخر، ولا وطنٍ دون غيره، ولا إنسانٍ دون سواه، بل هي أمور إنسانية عامة ذات أهمية في كل زمانٍ ومكانٍ.. ومن هنا فإن التصدي لها فنّيا يمثل اختياراً موفقاً.. إنّ شكوى الفلاح المصري القديم، المعروفة باسم شكوى «الفلاح الفصيح» تمثل حتى اليوم رمزاً للمواجهة الجريئة الشجاعة التي يحلم بها كل المظلومين في أنحاء الدنيا.. تُرى هل كانت حيويّة الموقف أو فصاحة الفلاح أم كلاهما معاً وراء الخلود لهذه القصة؟.

لقد ركز نجيب الكيلاني على قضايا الإنسان الحيوية المعاصرة، فاحتشد لها وحقق بذلك انحيازه لمجتمعه وقضاياه، ثم أعطى لفنه نفحة من الحياة المستمرة بحيث تجد فيه الأجيال التالية ما تبتغيه من الفن الجيد.

إنّ اختيار الزمن المعاصر أو الفترة الراهنة مجالاً روائياً، كان له تأثيره على سياق الأحداث، بحيث صار الزمن الروائي زمناً تصاعدياً ومطرداً، يسير على نسق متتابع، ليتناغم مع تسلسل الأحداث المتلاحقة، ونادراً ما نجده يتقهقر إلى الماضي أو يعود إلى تاريخ الأشخاص عن طريق التذكر، أو ما يسمى بلغة السينما (الفلاش باك)، كما نرى مثلاً عندما تتذكر «براعم» من «ملكة العنب»، مرحلة الطفولة والتلمذة التي كان لها تأثيرها على حياتها ومسيرتها، ولكن الزمن الروائي يظل بصفة عامة، زمناً تصاعدياً مطرداً يؤكده ضمير الغائب الذي يسود الروايات في عملية السرد التي انتهجها الكاتب.

وقد يثور سؤال حول دلالة الزمن الذي اختاره لروايته «أقوال أبو الفتوح الشرقاوي»، وهو زمن الحرب العالمية الثانية؟.

ويبدو لي أن الكاتب لم يهرب من أيامنا، بل لم يغادرها على الإطلاق. صحيح أنه عاد إلى الوراء ما يقرب من خمسين عاماً كانت الدنيا فيها غير الدنيا، والنظام غير النظام، ولكنه أراد بطريقة ما أن يخبرنا أن المضمون لم يتغير، وأن الحوادث هي هي.. فأهل الريف الفقراء المطحونون (عصب المجتمع) ما زالوا كما هم، والطبقة العليا تعيش الفساد والانحلال والمظاهر الخادعة، وقهر السلطة للناس لم يتغير،

والصراع بين الخير والشر، والصلاح والفساد باقٍ ومستمر..

إن زمن الحرب العالمية الثانية يوازي الزمن الراهن بطريقة ما ويتيح للكاتب فرصة أفضل لتقديم شخوصه وأحداثه بما يمنع التأويل والإسقاط على أشخاص معاصرين أو أحداث قريبة فيما لو جعل زمنه معاصراً لنا، قريباً منا.

وعلى مستوى آخر، يبدو الزمان الراهن بصورة ما قريناً للمتاعب والمفاسد والمجهول، ومن هنا تتبدى حالة الهجاءِ الملحوظة للزمان وأهله في السياق الروائي، بل يتحول الزمان إلى رمز للسلبيات بصفة عامة على لسان عدد من شخوص الروايات الطيبين فها هو أبو المجد شاهين، الرجل الصالح، يتمتم قائلاً لزوجته:

«لا يعلم الغيب إلا الله .. هذا زمان الغموض والضلال»[1]

والعمدة الطيب يتحدث إلى زوجته مفضياً إليها بهمومه، فيقول مقارناً بين الماضي والحاضر:

«كثيراً ما تحدثني نفسي، بأني غير قادر على حمل المسؤولية، ويبدو لي أني لم أخلق لهذا الزمان .. في الماضي كان كل شيء يسير على ما يرام.. لم تحيرني جريمة، ولم يستعص عليّ لغز، أما اليوم فقد تحوّل الناس إلى شياطين.. يحبكون جرائمهم.. ويزوّرون كل شيء، ويبرعون في تضليل العدالة»[2].

وكما نرى في أقوال العمدة، فإن الزمان يصير مرادفاً للمجتمع أو لأهل العصر أو للناس الذين تحولوا إلى شياطين في حبك الجرائم والتزوير والتضليل .. أي تحولوا إلى مجرمين محترفين أذكياء..

وهناك بالطبع أسباب لهذا التحول نستطيع أن نستشفها عبر الروايات متمثلة في الظلم والقهر وتلفيق القضايا ومحاربة التدين والاعتماد على المنافقين والوصوليين في إدارة شؤون الناس، ثم أجهزة الدعاية التي تخفي الحقائق وتنشر عكسها:

« هذا زمن التمثيل والتمثيليات . لقد تربع التلفزيون على العرش .. آه يا دنيا

(١) ملكة العنب، ٣٢.
(٢) السابق، ٣٣.

السلبيات والأكاذيب»[1].

وهكذا يبدو هجاء «الزمان» متناغماً مع اختيار «الزمن المعاصر» مجالاً للبناء الروائي، حيث يحفل هذا الزمن بالكثير من المتاعب والمفاسد والمجهول...

إن البيئة الروائية في روايات نجيب الكيلاني (مكاناً وزماناً) تحقق مجالاً رحباً للواقعية الإسلامية التي ينتهجها المؤلف، وتتناغم مع المعطيات التي طرحها عبر الشخوص والأحداث لتبشر بمكانٍ (مجتمع) جديد، وزمانٍ (عصر) جديد، تولد فيهما قيم الحق والعدل والأمان، وترفرف عليها رايات الإسلام، أساس هذه القيم وصانعها.

---

(١) نفسه، ٤٦.

الموضوع الروائي

ترتبط روايات الواقعية الإسلامية لدى «نجيب الكيلاني» بالفترة الراهنة أو القريبة منها، ويستشعر القارئ أنها معنية بالحوادث الجارية والقضايا المعاصرة بقصد معالجتها والدوران حولها، وهو ما يوهم أنها قصص إصلاحية أو قصص للتسلية، ولكن الواقع القصصي يعطي القارئ صورة أخرى أكثر عمقاً وأوسع شمولاً، لأنها تتناول الإنسان أو المواطن الذي تضنيه أزمة الحرية، ويقهره فقدان العدل، ويعذبه توحش الفساد.

إن القصص الإصلاحية ـ كما يقول بعض الباحثين ـ تكون عادة قصيرة الأجل، لا يكتب لها البقاء، لأنه لابد من أن يأتي يوم تعالج فيه النقائص، وتدرج في سجل النسيان. وكثيراً ما يوفق الكاتب في هزة الحماسةالتي تمتلكه، إلى تصوير بعض الحوادث تصويراً حيًّاً متحركاً، وإلى تلوين البيئة بألوان صادقة معبرة، وهو بهذا يمهد لقصته سبيل الخلود، فتطوى فكرته الإصلاحية مع الزمن، وتبقى هذه الألوان الفنية الصادقة[1].

ولا يستطيع القارئ أن ينفي عن روايات «نجيب الكيلاني» الصفة الإصلاحية تماماً، فهي صفة متضمنة إلى حدٍ ما في بعضها، ولكنها في الوقت ذاته تحمل عناصر الخلود الفني، لأنها دارت حول موضوعات شبه أزلية في واقعنا العربي الإسلامي (الحرية، العدل، الاستقامة، النهضة..)، من ناحية، وتضمنت حوادث وشخوصاً في صياغة فنية حيّة ذات مستوى عال من الحرفة والأداء من ناحية أخرى.

قد يتوهم القارئ أن القصة التي يرويها نجيب الكيلاني مجرد حادثة ينسج حولها بعض الأبعاد التي توحي بآنية الحادثة، وتبشر بتلاشيها أو تلاشي تأثيرها بعد قراءتها، ولكن الدخول إلى أعماق القصة، يكشف العكس، ويبشر بعالم قصصي مليء بالحياة والحركة..

إن رواية «اعترافات عبد المتجلي» مثلاً تبدأ بداية مشوقة مثيرة، من خلال حادثة

(١) محمد يوسف نجم، فن القصة، ٢٦-٢٧.

طريفة غريبة، تتعلق بسرقة ونش ضخم، كان يستخدم في مشروع إنشاء مترو الأنفاق بالقاهرة، وأن هناك أجهزة مسؤولة يُفْتَرض أنها تتولى معالجة الموضوع، إلا أن الشاب عبد المتجلي يأخذ على عاتقه عملية البحث عن الونش للعثور عليه..

«هذه كارثة كبرى بكل المقاييس، الحادثة التي أعلن عنها حقيقة.. نعم حقيقة تفقأ عين الشمس، والناس يضحكون، شر البلية ما يضحك».

ويأخذ البطل في المقارنة بين سرقة الونش الضخم من ميدان عام شهير بمدينة القاهرة، لا تنقطع فيه حركة السير ولا الأجهزة الأمنية، وسرقة الأشياء الأخرى من الجيوب والدور، وسرقة الأضواء والشهرة والسلطة والانتخابات .. وهذا النوع من السرقة لا يثير الغرابة .. أما سرقة الونش فهي المثيرة والغريبة، وقد جعلت «عبد المتجلي القصاص» يقلب حياته رأساً على عقب، ويحاول البحث عن الونش وعمن سرقوه:

«كيف يسرقون الونش؟؟ إن ذلك غاية الوقاحة والفجر والاستهتار»(1).

إن الحادثة بهذا الشكل تبدو إلى حد ما موضوعاً آنياً، ينتهي بصورة وأخرى عند العثور على الونش، أو عدم العثورعليه، ولكن الرواية من عنوانها، حتى خاتمتها، بل خاتمة الرواية الثانية ـ المكملة لها ـ وهي «امرأة عبد المتجلي»، تعطينا العديد من الدلالات والمعاني العميقة والمطردة، التي تتصل بالإنسان الباحث عن الحياة الحرة العادلة المستقيمة، وسط طوفان من القهر والظلم والانحراف تصنعه النفوس الخبيثة والقلوب المتحجرة والطبيعة البشرية الملوثة.

والسؤال الذي يجبهنا منذ البداية : هل نجد في اسم «عبد المتجلي» دلالة توصي بالعبودية لمن يتجلّى أو يظهر على البشر، ويرى أعمال العباد بخيرها وشرها، مما يعني أنه وحده الأحق بالعبودية دون غيره ممن تألهوا، وتجاوزوا حدود «الإنسانية» إلى تخوم «الألوهية»؟.

وهل يمكن إذاً أن نرى في الاسم المركب «عبد المتجلي» ودلالة العبودية لمن يملك

(1) اعترافات عبد المتجلي، ٥.

مصائر العباد، ضرورة التحرر من الرق البشري وجبروت العباد «المتألّهين» وقيودهم، وهو ما حاول بطل الرواية أن يكونه على امتداد رحلته الواقعية والفنية؟.

أم إن اسم «عبد المتجلي» لا يعدو أن يكون مجرد اسم، اختاره الكاتب ليمثل نوعاً من الأسماء النادرة أو المتفردة التي لا يتسمّى بها الناس إلا في حالات قليلة؟.

أياً كان الأمر، فإن «عبد المتجلي» الاسم والبطل، يقودنا إلى تجربة مثيرة في مواجهة الواقع، والكشف عن صراع النفس البشرية بين الخير والشر، ومدى قدرة الإنسان ذي الفطرة السوية على تحمل المحن والصبر عليها حرصاً على حريته وكرامته الإنسانية.

ويلاحظ أن كلمة «اعترافات» في عنوان الرواية ـ اعترافات عبد المتجلي ـ لا تعني الدلالة الحرفية للاعترافات، فالبطل لا يعترف بشيء، ولا يتحدث عما جرى له، ولكن الكاتب أو الراوي يتولى بالنيابة عنه حكاية قصته مذ خرج من قريته يبحث عن الونش المسروق حتى عودته مع امرأته التي تزوجها في القاهرة.. ثم امتدت الحكاية حتى مقتل هذه المرأة في نهاية الرواية الثانية المكملة ـ امرأة عبد المتجلي ـ ولعل الكاتب كان يقصد ما أدلى به عبد المتجلي من أقوال، أو ما طُلب منه الإدلاء به أمام أجهزة الأمن عندما قبضت عليه، ولكن هذه الأقوال لا تمثل اعترافات ذات هيمنة على الموضوع الروائي حتى تصير عنواناً للرواية.

وفي كل الأحوال، فإن العنوان كما ورد على غلاف الرواية قد لا يعبر تماماً عن مضمونها، ولعله لو اقتصر على اسم البطل وحده (عبد المتجلي)، لكان أكثر انطباقاً على مضمونها وفحواها، وأكثر اتساقاً مع الدلالات الواقعية والفنية للرواية.

وبالمثل يمكن القول، إن عنوان الرواية الثانية «امرأة عبد المتجلي» قد يعبر عنه اسم البطل وحده (عبد المتجلي)، فهو لم يزل محور الموضوع الروائي وعمدته، وإن كان لامرأته نصيب كبير فيه، ويعزز هذا ما قاله لي المؤلف ذات مرة : إن هناك جزءاً ثالثاً سيكون بعنوان «هجرة عبد المتجلي»، مما يعني أن الثلاثية تدور حول محور عبد المتجلي، الذي كان ينبغي أن يكون اسماً للرواية بأجزائها الثلاثة، وكان يمكن أن

يطلق على الرواية الأولى، الجزء الأول، والثانية، الجزء الثاني، والثالثة التي سيكتبها المؤلف : الجزء الثالث.

وأيا كان الأمر، فإن دلالة العنوان في الرواية الثالثة موضوع الدراسة، أعنى «قضية أبو الفتوح الشرقاوي» تنسجم مع دلالاتها، وكذلك الرواية الرابعة «ملكة العنب».

بيد أن روايات الكيلاني هذه، تشدنا في مستوى من مستوياتها الأساسية إلى قضايا طارئة على المجتمع، وغريبة عليه، أو لم يكن له بها عهد من قبل.. فعبد المتجلي يطلعنا على قضية خطيرة صنعها الفساد المتوحش، وهي تجريف الأرض الزراعية لصناعة الطوب من ترابها، مما يعني تخريب الزراعة وتخريب الحياة ذاتها، ويطلعنا على قضايا أخرى خطيرة منها انقلاب القرية المصرية شكلاً ومضموناً، والتطرف الانحلالي والتطرف الديني والرشوة وفساد الإدارة والظلم الاجتماعي والسياسي... وأبو الفتوح الشرقاوي يطرح قضية الكذب وإدمانه حتى صار شارة العصر وعلامته على أكثر من مستوى، بالإضافة إلى الفساد والانتهازية والمحسوبية وعفن الطبقات العليا، والغلاء، والفقر وتجار السوق السوداء وانتشار الأمراض المتوطنة، وتثير رواية «ملكة العنب» قضية ترك زراعة المحاصيل المعتادة من قمح وشعير وذرة وأرز، وزراعة العنب بدلاً منها، مما يعني أن يجوع الشعب ويمد يده للغرباء كي يستورد لقمته، وإن حقق زراع العنب مكاسب طائلة.

تعبر هذه القضايا في مستواها هذا، عن وعي الكاتب بما يجري في مجتمعه، وشوقه إلى أن يبرأ من آثارها الضارة، ومضاعفاتها المزعجة، وهو حين يقص حوادثها، فليس غرضه ـ كما يقول «موباسان» أن يسلينا أو يثير شعورنا، بل هدفه أن يجبرنا على أن نفكر ونفهم المغزى العميق الخفي للحوادث، وفنّه لا يتجلى في المؤثرات العاطفية أو في مجال اللغة أو في البداية المشوقه. أو الصراع المؤثر بل تكمن قدرته في حشد التفاصيل الدقيقة المتكررة التي ستعمل على إبراز المغزى الجوهري «وقوله (ستعمل) يعني أن مغزى القصة لن يتضح إلا بعد الانتهاء من قراءتها بحرص وأناة، حتى نستطيع نحن أن نساعد الأديب على استكمال الصـورة المراد

إيصالهـا إلينا»[1].

وفعلاً ، فإن القارئ لا يستطيع أن يصل إلى المغزى العام إلا بعد القراءة الحريصة المتأتية، وأمام الحشد ـ بل الحشود الضخمة ـ من التفاصيل الدقيقة، لابد للقارئ أن يستنتج قضايا رئيسية مهمة وأساسية في الصراع الإنساني بين الخير والشر، من خلال التقاط المادة اللافتة وغير العادية، التي تعد المفتاح الحقيقي للقراءة النقدية كما يرى «روجر هينكلي»[2].

وتبدو حرية الفكر من أبرز هذه القضايا، فهي عنوان «الحرية الإنسانية» والطريق إلى التقدم الشامل : روحياً ومادياً، وقد تردد الحديث عنها في ثنايا الروايات وبخاصة روايتي عبد المتجلي (اعترافات عبد المتجلي، امرأة عبد المتجلي)، وترتبط حرية الفكر بأبعاد متعددة تعني حرية الإنسان وصراعه مع قوى القهر والظلام التي تؤمن بالقمع، وسيلة لاخضاع الناس وتسييرهم، مهما كانت نتائج هذا القمع متناقضة مع الفطرة الإنسانية والقوانين والقيم والأعراف، فضلاً عن الأديان السماوية..

ويبرز السياق الروائي مدى خطورة الرأي أو حرية الفكر في مجتمع القمع، لدرجة أن قضايا المخدرات تبدو أقل خطراً من قضايا الرأي، فالمتهم في الأولى يجد فرصة الإفلات من العقاب والتمتع بالبراءة، أما قضايا الرأي، فصاحبها متهم دائماً، وتلاحقه التهمة أينما توجه، وهو على قائمةالمطلوبين باستمرار، وها هو الحاج إسماعيل يعلق على ما أثاره عبد المتجلي وأهل القرية من آراء فيقول :

«أصبح الكلام من بعض الأمور ـ أشد خطراً من المخدرات.. أنا شخصياً إذا خيرت بين قضية سياسية وقضية مخدرات لاخترت الأخيرة» لماذا؟ لأن قضايا المخدرات يستطيع المحامي فيها أن يصول ويجول، فيجد الثغرات، ويبطل الأدلة،

---

(١) طه محمود طه، القصة في الأدب الانجليزي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م ص١٤١.

(٢) روجر، ب. هينكلي، وصلاح رزق، في قراءة الرواية : تصور منهجي ودراسات تطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٨٨، ص٣٧.

ويربك الشهود، وكثيراً ما يحصل على البراءة.. أما في قضايا السياسة فالمتهم مجرم، وإن ثبتت براءته.. هل سمعتم عن القوائم السوداء .. إنها شيء آخر غير السوق السوداء.. إذا لم يكفّ أهل قريتنا عن الاتجار في الكلام فسوف تسحقهم الدبابات، وتدكهم الطائرات، وسيصيبهم ما أصاب أهل كرداسة في عام ١٩٦٥، أي قبل النكسة بعامين ..»[1].

إن الفكر أوالكلام أو حرية الرأي، صارت مرادفاً للعناء، وعدم المنفعة، ليس بالنسبة للقوى القمعية وحدها، ولكن لقطاعات عريضة في المجتمع، إذ نرى أن الفكر لا جدوى له، بل هو سبب كثير من البلاء، وقرين للأحزان والأشجان، إن الواقع المادي الصرف يلفظ الفكر وأهله ويحاصرهم، ويبحث عن مصلحته المادية فحسب.

تقول أم صابرين ، وهي تمثل منهج المنفعة، في حوارها مع زوجها عبد المتجلي:

« الفكر هو سبب كل البلاوي.

— الفكر عندك يعني الهموم والأحزان»[2].

ويفسر عبد المتجلي، ما يعنيه الفكر من وجهة نظره، وهي وجهة نظر الكاتب فيما يبدو :

«الفكر فلسفات ومشاكل.. وبحث عن حلول لقضايا الفرد والمجتمع. كيف تتغلب على قوى البطش والطغيان؟ كيف نحرر المظلومين، ونحقق العدل بين الرعية؟ ولماذا لم نتقدم صناعياً وحضارياً؟ ولماذا تفيض أنهار الصحف، وأحاديث الكبار بالخداع والكذب؟ هذا بعض ما يعنيه الفكر..»[3].

القضية إذاً تعني الحرية بمفهومها الشامل، ومواجهة قوى القهر، وإقامة العدل،

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٢٦،٢٥.

(٢) امرأة عبد المتجلي، ١٨.

(٣) السابق، ١٩.

والتقدم الحضاري، وهذه أمور لا تعني بالضرورة من يفكرون تفكيراً براجماتياً أو نفعياً مثل امرأة عبد المتجلي (أم صابرين).. ولكن عبد المتجلي الذي يمثل جيلاً يتشوق إلى الحرية والعدل والحضارة، لا يقبل بالمنهج النفعي أو التفكير البراجماتي، إنه يتطلع إلى عالم أكثر رحابة واتساعاً وإنصافاً، ولذا قادته قدماه إلى عالم الظلم والظلام لاستكشاف جوانبه، والاصطلاء بناره، والوقوع تحت وطأة التعذيب الذي لا يرحم، والمعذبين الذي قُدَّت قلوبهم من صخر.

لذا تحفل الروايات بالحديث عن التعذيب والمعذبين والقمع والجلادين، وآثار ذلك على المجتمع، وبخاصة،الشباب..

لقد تعرض عبد المتجلي للتعذيب، وتعرض أبو الفتوح الشرقاوي للتعذيب، وتعرض محمد حسب الله وأبو المجد شاهين وأهالي قرية الربايعة للتعذيب، وأفاضت الروايات في تصوير بشاعة التعذيب، ووحشية المعذِّبين، والتُّهم الملفقة التي أُجْبِر الضحايا على الاعتراف بها، ويكفينا هنا أن نقرأ ما ذكره الراوي عن تعذيب «الرجل الصالح» ـ أبو المجد شاهين ـ ذلك الفلاح الطيب الذي لا دخل له بالسياسة ولا الأحزاب، وأُخذ من الدار إلى النار، كما يقال.

«كان أبو المجد متألماً لما يجري، لم يخطر على باله شيء من هذا قط قبل ذلك، ولم يتصور أن وراء الأسوار وحوشاً بشرية تتصف بهذا القدر من القسوة والحيوانية والمعصية لله. كان يسمع أطرافاً من أحاديث حول معاملة السجناء والمعتقلين والسياسيين، لكنه كان يعتبر ذلك أموراً كالتي تحدث في دوار العمدة، أو نقطة الشرطة، وما طاف بخياله قط أن يكون للقمع زبانية مجردون من الضمير والدين، وأنهم تمرسوا على مثل هذه الفنون الوحشية»[1].

ولأن التعذيب فاق كل تصور، فإن نتائجه أثمرت التطرف، وأورثت الضغائن، وشجعت الثارات التي قد يذهب ضحيتها أبرياء، وها هو عبد المتجلي يتحدث عن التعذيب والسجن،فيقول : «هنا المدرسة التي يمكن أن يتعلم فيها الإنسان التطرف

---

(١) ملكة العنب، ٦٧.

على أصوله إذا كان للتطرف أصول.. أتمنى لو أن معي مثقاباً كهربائياً (شنيور) لأغرزه في عيونهم وآذانهم وأمخاخهم، ثم أجلس لآراهم يتعذبون..»، ويعلل ذلك بما صنعوه معه «لقد وضعوا عصاة في دبري![1].

وإذا كان التعذيب هو مصنع التطرف الأصلي، فإن الروايات تحمل تفسيرات أخرى للتطرف، منها ذلك الانقلاب الاجتماعي الذي جرى للقرية المصرية شكلاً ومضموناً، ومنها انتشار التطرف الانحلالي، وترك الحكومة الحبل على الغارب باسم الحرية الشخصية في الوقت الذي تضيق فيه الخناق على دعاة الإسلام.

وإقدامها على تزييف الانتخابات بصورة وقحة علنية، وهيمنة الرشوة والوساطات في قضاء الحاجات مما ينذر بكوارث اجتماعية وسياسية لا يعلم مداها إلا الله، لهذا تضاعفت أعداد الشباب المنضمين إلى التنظيمات الإسلامية حيث عدوا أنفسهم حُراساً للقيم والمبادئ الدينية...[2].

وإذا كان القمع الذي يُمارس ضد الأفراد، ويصل بهم إلى التعذيب داخل السجون، يؤدي إلى التطرف والعنف، فإن القمع ضد المجتمع كله ينذر بأخطر الكوارث التي تهدد بانهياره فضلاً عن تخلفه، ويجد القارئ في رواية «ملكة العنب» مقارنة بين القمع قديماً، والقمع حديثاً، فالناس قبل خمس وأربعين عاماً، يذكرون «الهجّانة» الذين جاؤوا على إبلهم ومنعوا الناس من التجول، وكانوا يضربون المخالفين بالسياط.. حدث ذلك عندما ثار الناس على طغيان ملاك الأراضي، أما الآن فإن القمع أصبح فناً له أصوله وضوابطه، ويعتمد على القنابل الدخانية، والعصى الكهربائية، والمسجلات التي يمسكها العسكر ويتحدثون فيها، والتلفزيون الذي يقوم بالتصوير![3].

تبقى قضية الحرية بإيقاعها المختلفة، على مستوى الأفراد ومستوى المجتمع، القضية

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ١٢٧.

(٢) امرأة عبد المتجلي، ١٢٤.

(٣) ملكة العنب، ٤٣/٤٤.

الأولى التي تشغل روايات نجيب الكيلاني، حيث تصبح التفاصيل التي يحشدها نفحات متسقة، في إطار نشيد عام، هو نشيد الحرية، ويصبح الموضوع الروائي الأساس هو «جمرة الحرية» بلظاها وضوئها. ولهيبها ونورها، ورمادها ومصيرها.

وإذا كانت الحرية أو جمرتها هي الموضوع الروائي الأساس، فإنه يمكن القول إن الفساد ـ بمعناه الشامل ـ هو الموضوع الروائي الفرع، وإن بدا في كثير من الأحيان أنه المهيمن على سطور الروايات، ولكنه في حقيقة الأمر يُعدّ الوجه الآخر لقضية الحرية، فانتفاء الحرية يعني المزيد من الخلل والأخطاء والعفن، وهو ما يُطلق عليه الفساد بمعناه الشامل.

إن الفساد لا ينمو ولا يترعرع إلا في بيئة فقدت الروح، وأخلدت إلى الأرض = المادة = وصار المال فيها هو المقياس أو المعيار اجتماعياً وسياسياً :

«قالت أم صابرين بعد تناول العشاء :

ــ أتعلم ما هي مشكلتك؟.

ــ بالتأكيد .. إن القضية هي أنني لا أستطيع التأقلم مع هذا العالم الفاسد.. ولا.. قاطعته، وإشراقة حبّ متألقة تصبغ وجنتيها الشهيتين :

ــ مشكلتك المال.

ــ هذه فلسفة السقوط.

تمتمت دون أن تفهم معنى بعض كلماته :

ــ بل النجاح ...

وبعد تحليلٍ لمعنى النجاح والسقوط في مفهوم أم صابرين ـ زوج عبد المتجلي ـ تخاطبه :

* أقول بصراحة : المال هو القوة .. لو كنت غنياً يا عبد المتجلي لدانت لك الرقاب، ولانحنى لك العمدة نفسه احتراماً وإكباراً .. وشيخ الجامع يا عبد المتجلي

يروي عن الرسول أن تسعة أعشار الربح في التجارة..

هزّ عبد المتجلي رأسه مفكراً وقال :

ـ أنت مثل عامة الناس في هذا الزمان»[1].

«عامة الناس» إذاً هي محور المعاناة عند عبد المتجلي. لقد أخلدوا إلى الأرض ومنهم زوجته التي ترى أن المال هو القوة.. الذي يجعل الرقاب تنحني وتخضع، ولو كانت رقبة أكبر رأس، وهو العمدة! وفي سبيل المال انتشر الفساد وعمّ، وأخذ صوراً متعددة، منها ما هو معتاد مألوف، ومنها ما هو طارئ غريب.

من حوار بين عمدة الربايعة والشيخ محمد حسب الله إمام المسجد، نقرأ عن المال والفساد، ... لكن الناس من هذا الزمان قد جنّوا بحب المال، وهم على استعداد لأن يلوثوا الشرفاء، ويسفكوا الدماء للحفاظ على مكتسباتهم.. العالم كله هكذا .. لعنة الله على الربايعة وأهل الربايعة.. أتدري يا بني ما الذي أفسد هذه القرية التي كانت آمنة؟.

– ماذا؟.

– عد على أصابعك :

التلفزيون.. والسفر للعمل بالخارج.. وفساد الإدارة.. والبضائع المستوردة.. وانهيار التعليم.. والبعد عن شرع الله.. والرشوة.. تلك هي الأوبئة السبعة»[2].

الأوبئة السبعة منها ما هو معتاد ومنها ماهو طارئ، وكلها كما عدّها عمدة الربايعة والشيخ محمد، سبب المأساة التي يعيشها الناس، وإن بدا بعضها مصدر نفع وفائدة مثل التلفزيون والسفر للخارج، فالتلفزيون يمكن أن يتحول إلى أداة تثقيف وتوعية ومعرفة، والسفر للعمل بالخارج يبدو لأول وهله مصدراً للثراء وتوفير الحاجات التي تحقق الاكتفاء وتمنع من الاحتياج، ولكن التلفزيون تحول إلى أداة دعاية للكذب

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٢٦/٢٧.

(٢) ملكة العنب، ١٦.

ودعوات الباطل وغسيل المخ والقيم المادية الرخيصة، أما السفر للعمل بالخارج، فقد مزّق الأُسر وأفسد العلاقات الاجتماعية وترك الأبناء والزوجات بلا تربية ولا رعاية. وكان الحصار في كل الأحوال قبض الريح. إن الأوبئة السبعة قد حولت الناس إلى عبيد للمال وحده، يملأون به البطون ويشبعون الرغبات الحسية، ولم يعد هنالك مجال للقيم الروحية السامية وفي مقدمتها «الحرية» بمعناها الرحيب، وهو ما أتاح للفاسدين والمفسدين أن يزدادوا في الأرض فساداً وغواية وضلالة.. بحيث صارت الأوبئة السبعة أمراً اعتيادياً، فالرشوة مثلاً صارت مألوفة ويمارسها الكبار والصغار، وقضاء المصالح اليومية وغيرها لا يتم إلا بالدفع.

«في الرخصة تدفع.. وفي إدخال الماء تدفع .. وعند مدّ أسلاك الكهرباء تدفع.. وكل جزار على شاطئ الترعة يقدم له (أي لرئيس المجلس القروي) كيلو لحم أسبوعياً.. » .. بل إن رئيس مجلس القرية يقول تعليقاً على رفض «أبو المجد شاهين» دفع الرشوة كي يصل تيار الكهرباء وماسورة المياه إلى بيته : «لن يدخل النور بيت أبو المجد» لأن الأحمال الكهربائية لا تكفي، ولن يشرب قطرة ماء من شبكة مياه الحكومة.. إلا إذا دفع.. ليس عندي فرق بين صالح وطالح»[1].

إن القضية بالنسبة لرئيس مجلس القرية تعدّ بسيطة ومحدودة، ولكن هناك كباراً يحصلون على الملايين دون أن يتدربوا في مدارس النشل، لديهم مؤهلات، كدكتوراه وماجستير ودبلومات عليا في مختلف الفنون والعلوم، وهم يستخدمون هذا العلم الحديث في الاستثمار الحرام، وامتصاص الدماء، واستنزاف التائهين والمقهورين والجهلاء..[2].

إن الرشوة وبقية مظاهر الفساد صار لها مسميات جديدة، أطلقها المفسدون بقصد التخفيف من دلالة الأسماء الأصلية، وخداع البسطاء والسذج، إن تسمية الرذائل بمسميات جديدة محاولة للقفز على مواصفات المجتمع وأخلاقه فضلاً عن

---

(١) السابق، ٦٩.

(٢) امرأة عبد المتجلي، ٤٦.

دينه.. إن الرشوة صار أسمها عمولة أو مصاريف إدارية مقابل التسهيلات التي يحظى بها المستفيد. ولم يكن لدى الإدارة والعمدة مثلاً مانع من تقبل هذه العمولة، وخاصة أن أم صابرين ـ امرأة عبد المتجلي ـ سخية اليد، وإذا أعطت لخفير أو كبير أو مدير بيمناها، لم تعرف يسراها عن ذلك شيئاً، وهذا ما جعل عبد المتجلي يصاب بالذهول عندما عرف أن الكذب له ألف اسم واسم والرشوة تتزين بأردية شتى مختلفة الألوان، والظلم اسمه الضبط والربط والأمن الاجتماعي، ومجالس الاستغلال والنصب يطلقون عليها مجالس القرى، والإفساد الزراعي يدعى بالإصلاح الزراعي..

«صرخ عبد المتجلي بأعلى صوته ذات ليلة، وقال :

ـ أم صابرين أيتها الملعونة ..

أقبلت مسرعة وهي تلهث، يتقدمها بطنها المتضخم، فقد أصبحت حاملاً في شهرها السادس وقالت :

ـ هل صحيح ما سمعت ؟؟.

ـ كيف لا تكونين ملعونة.. وأنت تحلين ما حرم الله.. الراشي والمرتشي في النار.. والمحتكرون والمحتكرات في النار..

قالت بحزم..

ـ كفى .. وكن عادلاً .. »[1].

والفساد في روايات نجيب الكيلاني متجذر يمتدُّ إلى أعماق الماضي، وتجذره ـ فيما يبدو ـ هوسرّ قوته، في مواجهة دعوات الإصلاح وقهرها والتشهير بها، وتحويل الدعاة إلى متهمين دائماً.. ففي رواية «قضية أبو الفتوح الشرقاوي» التي تدور في زمن الحرب العاليمة الثانية، تجسيد حيّ للفساد المتوحش الذي صنعته أطراف عديدة، فقد كان هناك تهريب للسلاح من المعسكرات البريطانية يقوم به بعض

---

(١) امرأة عبد المتجلي ، ١٣/١٢.

الرسميين، والسوق السوداء تخضع لسيطرتهم، الحشيش مثلما يقال، على قفامن يشيل»، بل ظهرت مخدرات ومنشطات جديدة أشهرها «البانجو»، والقطعة منه تباع بقرشين، والناس كانوا يبيعونه في الشوارع والحارات دون حرج ـ والانجليز هم الذين أَتَوْا به، والسوق السوداء ضرورة معيشية لأن التموين الرسمي لا يكفي، ولا بد أن يبحث الناس عن احتياجاتهم بأي ثمن.. حتى قال الحاج يونس عبده :

«قريتنا هي القرية الظالم أهلها.. وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[1].

إن صورة البلاد في تلك الفترة هي صورة موازية للأوضاع في زماننا مع اختلاف الشخوص والأبطال، فهناك أمور كثيرة تجري في الخفاء، القضايا المهمة تتوارى، وتطفو على السطح أحداث ثانونية أو فرعية لا قيمة لها، وينشغل الناس بأمور تافهة، ويبقى الحال على ما هو عليه.. والمستقبل غامض لا يعرف أحد ماذا سيحدث غداً، والغلاء كغول، ينشب أظفاره، وتجار السوق السوداء تنتفخ كروشهم وجيوبهم، والفلاحون «أرهقهم الرجيم» الإجباري، ولهذا فهم لا يشكون من ارتفاع الكوليسترول في الدم ولا الضغط ولا الذبحة، فقط الأنيميا.. فقر الدم، البلهارسيا..[2].

إن الكاتب ـ في رأيي ـ قد لجأ إلى فترة الحرب العالمية الثانية، ليجد فرصة أرحب في رسم الصورة الموازية التي يستشعرها القارئ دون كثير عناء، حين يقارن الوضع آنئذ والوضع الراهن، إنها على كل حال، صورة تعسة للوضع الفاسد المتردي الذي آلت إليه مصر في هذه الحقبة التاريخية السوداء، وأنها تجسيد لضياع هيبة القانون والحريات العامة، كما أنها كشفت المستور عن الأوضاع المهترئة للطبقات التي تزعم أنها راقية ومتحضرة وشريفة، كما كتب أحد الكتاب الحزبيين من منظور عام[3].

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٦٨.

(٢) السابق، ٩٣.

(٣) قضية أبو الفتوح الشرقاوي ، ٨٤.

ومهما يكن من أمر، فإن الفساد العام، في القديم والحديث، له صلة حميمة وعلاقة وثيقة بمواجهة دعوات الإصلاح وقهر الدعاة المصلحين، فعندما ذهب عبد المتجلي القصاص، ليبحث عن الونش المسروق، وقع في قبضة جهات الأمن التي أصلته نار التعذيب الوحشي، وقد أراد أهل القرية الاجتماع على ما جرى لابنهم، فواجههم العمدة الفاسد ورجاله، وأصدر إليهم أمراً بالعودة إلى بيوتهم لأن التجمعات والتظاهرات ممنوعة طبقاً لقانون الطوارئ.. والمخالف مصيره الاعتقال، ومن حق وزير الداخلية رفض الإفراج عن المعتقلين.. وقد قام رجال العمدة (الخفراء وشيخهم) بضرب الأهالي عدا الإمام والشيخ إسماعيل..

ولكن وفداً من الأهالي يذهب فيما بعد إلى عاصمة المحافظة ويقابل المحافظ، ويذهلون عندما يخبرهم المحافظ أنه لا يعرف شيئاً عن المدعو «عبد المتجلي القصاص» ولا يهمه أن يعرف![1].

وإذا كان المحافظ، بوصفه مسؤولاً رسمياً أعلى، يبدو سلبياً، وغير معني بقضية خطيرة، مثل قضية عبد المتجلي، فإن المسؤول الرسمي المباشر، يأخذ موقفاً إيجابياً لصالح السلطة، وأكثر سلبية تجاه الناس، فقد اجتمع رئيس مجلس القرية مع المجلس وقرر إرسال برقيات استنكار وشجب، وبراءة من عبد المتجلي، إلى المسؤولين، ونشر تأييد من المجلس للحكومة ورجال الأمن في الصحف. وعندما اقترح عضو في المجلس توفير ثمن البرقيات والتأييد لإصلاح ماسورة المياه المكسورة في القرية، ردّ رئيس المجلس.

– أنا مصرّ، بل وأعتبره واجباً وطنياً مقدساً.

ثم يشعل سيجاراً، ويقول:

«وعليكم أن تشجعوا أهل القرية خاصة النظار والمدرسين وذوي الحيثية على إرسال برقيات مماثلة حتى نزيل ما علق باسم قريتنا من أوساخ...»[2].

---

(١) اعترافات عبد المتجلي ١٠٨/١٠٩.

(٢) السابق، ١٠٦.

والمفارقة هنا لا تحتاج إلى بيان، فداعية الإصلاح «عبد المتجلي»، ومؤيدوه من أهل القرية، صاروا «أوساخاً».. أما العمدة ورجاله ورئيس المجلس وأعضاؤه، فهم ممثلوا الطهارة والنقاء مع ما يمارسونه من كذب وتزييف ونفاق وإفساد وانحلال وقبول للرشوة..الخ.

إن تجذر الفساد وفقدان الحرية، واختلال المجتمع، يهيئ لحالة من الإحباط والسلبية التي تعم جموع الناس، وتدفع الكثيرين دفعاً إلى اعتزال المجتمع مخافة الاحتكاك بالفاسدين أو الظالمين.. أو مجاراة الأوضاع الفاسدة والتلظي بنيرانها في النهاية. وغالباً ما يجنح إلى الاعتزال والسلبية أولئك الذين يتوقون إلى إشاعة الخير والفضيلة والمودة بين أفراد المجتمع، ولكنهم لا يستطيعون بإمكاناتهم الروحية والنفسية أن يخوضوا عباب الصراع، لذا يؤثرون الانزواء والعزلة :

«عندما تغيب شمس العدالة، يتفشى الحقد، وتنمو الأكاذيب، ويسبح الناس في بحر الظلمات.. ومن يفقد الأمن يعش في الجحيم، ألا وإن الإيمان هو جنة الله على الأرض.. وإذا شاعت الفتنة فالزم بيتك يا مؤمن .. ولتبك على خطيئتك.. وإذا لم تبكوا فتباكوا..»[1].

وقد يتجاوز الأمر العزلة أو الإنزواء إلى الهجرة، فقد فكر عبد المتجلي جدياً في السفر إلى الخارج هرباً من الواقع القاسي، وهي ظاهرة لم تكن مألوفة في المجتمع، ولكن الناس اضطروا إليها اضطراراً بسبب الاختلال السائد والفساد المتفشي والقهر الظالم.. بيد أن المؤلف لم يعالج هذه الظاهرة باستفاضة، وإن كان قد أشار إلى مكاتب العمالة والنصابين والكذابين وانعدام الثقة الذي يملأ أجواء المدينة، نتيجة استغلال الرغبة لدى الكثيرين في الهجرة والعمل بالخارج[2].

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٦٦.

(٢) حدثني الكاتب أنه بصدد كتابة جزء ثالث لروايته (اعترافات عبد المتجلي) و(امرأة عبد المتجلي) بعنوان (هجرة عبد المتجلي)، وعلمت أنه سيجعل هجرته إلى الداخل ناحية الجنوب، وليس إلى البلاد العربية والأجنبية، وفي هذه الهجرة ستظهر قضايا وموضوعات روائية أخرى تخص المكان وما يتعلق به.

وإذا كان الانزواء والعزلة والهجرة حلولاً سلبية يلجأ إليها الناس عندما تضيق بهم السبل للعيش بطريقة كريمة ودون أن يفقدوا حريتهم أو يصيبهم رذاذ الفساد، فإن نجيب الكيلاني حريص على أن يحقق نوعاً من التوازن في مواجهة الإحباط والسلبية، وذلك بأن يجعل أبطاله يقاومون الفساد والقهر، ويستمرون في المقاومة، مع ما يبدو أحياناً من انهزامهم أو دفعهم ثمناً باهظاً لمواقفهم، فبعدما جرى لعبد المتجلي من محنة على يد أجهزة الأمن، يعود إلى وظيفته بمجلس القرية، ويبدأ فترة من الكمون والاسترخاء، يستعيد فيها أمنه واستقراره .. وإذا كان السؤال المطروح هو : هل انهزم عبد المتجلي فعلاً؟ فإن القضية تحتاج إلى دراسة وتمحيص. فهو يعتقد أن الواجب لابد وأن يقوم به سواء تحقق النجاح أو حَلّ الفشل. هذا الالتزام في حد ذاته انتصار على الضعف[1].

ثمة قضايا أخرى طرأت على المجتمع، ولكنها ترتبط بصورة وأخرى بمسألة الحرية أو قضية الفساد، وقد عالجها المؤلف في مواضع مختلفة .. وقد أشرنا إلى بعضها من قبل فهناك مثلاً قضية تجريف الأرض الزراعية، وبيع ترابها بثمن غال ليصنع منه الطوب الأحمر الذي يستخدم في البناء، ويترتب عليه عدم صلاحية الأرض للزراعة.. وقد نجح بطله «عبد المتجلي» في مواجهتها، مع مالاقاه من عناء وصل إلى حدّ ضربه «بالفلقة» على رجليه في قسم الشرطة. وهناك قضية زراعة العنب بدلاً من المحاصيل الزراعية، وقد عرضها المؤلف باستفاضة، ولم يقدم لها حلاً واضحاً، ولعله وجد في مجرد العرض تنبيهاً إلى خطورتها كي يتلافاها الناس فيما بعد، وإن توقف عند مسألة إخراج زكاة العنب حقاً مشروعاً للفقراء.. ويمكن عدّ هاتين القضيتين من نتائج الفساد المستشري الذي غيّر النفوس والقيم، فدفع البعض إلى البحث عن الكسب السريع على حساب المصلحة العامة أو ما يسمى المصالح الاستراتيجية للأمة، فتبوير الأرض الزراعية في الوقت الذي يدعو فيه أهل الاقتصاد وغيرهم إلى التوسع في استصلاح الصحراء وإعدادها للزراعة لتستوعب الزيادة السكانية، وتفتح مجالات جديدة للرزق، عملٌ ضد الدين والأخلاق والقانون والوطن جميعاً. أما

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٥.

زراعة العنب والفواكه السريعة العائد على حساب المحاصيل الزراعية التي تكون الغذاء اليومي الرئيسي للناس، فهو دعوةٌ إلى استمرار استيراد القمح والذرة وغيرها من الدول الكبرى، مما يترتب عليه التبعية لهذه الدول، وإعطائها الفرصة للتحكم المستمر في مصيرنا وحركتنا واستقلالنا.

بيد أن الكاتب عالج ظاهرة مهمة من ظواهر الهجرة إلى الدول العربية، وهي قتل المصريين في الخارج وإعادتهم إلى البلاد جثثاً هامدة مشوهة، ووقوف السلطة من هذه الظاهرة موقفاً سلبياً غريباً لا يتفق مع واجبها في الحرص على كرامة مواطنيها وأبنائها كما تفعل دول العالم المختلفة لرعاية مواطنيها في الخارج.. بل إن المفارقة تكمن في أن السلطة عاقبت الناس في «الرابايعة» عندما أعلنوا سخطهم على النظام العراقي وحاكمه بسبب قتل مواطنيهم، وقامت باعتقال عدد كبير منهم وعذبتهم في مبنى جهاز الأمن، ولفقت لهم تهمة تكوين تنظيم ديني متطرف يسعى لقلب الحكم(!)، ولم تطلق سراحهم إلا بعد أن قام العراق بغزو الكويت، وتغيرت طبيعة العلاقات بين السلطة ونظام بغداد!.

وقد أشار الكاتب إلى عملية الغزو العراقي في سياق معالجته لمسألة قتل المصريين الذين ذهبوا للبناء والتعمير ومساعدة العراق في حربه مع إيران.. وأدان على لسان الشيخ أبو المجد شاهين ما يجري:

«هناك المسلم يذبح أخاه المسلم، والسماء تصب الحمم على الأبرياء، والأرض تتفجر بالنار، والعمائر والمصانع والمتاجر ينهبها المغول ويدمرونها، هناك هناك، عذارى وأيامى ويتامى يستغيثون، أليس هذا من علامات الساعة؟»[1].

إن الموضوع الروائي في روايات نجيب الكيلاني، حافل بالوقائع الجزئية والظواهر الجديدة التي طرأت على المجتمع، ولكنه يربطها بمهارة واقتدار بقضيته الأساس وهي الحرية المفقودة، أو وجهها الآخر وهوالفساد العام، وكلاهما، جعل الإنسان/ الفرد، أو المجتمع/ الشعب، كياناً هزيلاً لا قيمة له، ولا كرامة، سواء في داخل البلاد أو

---

(١) ملكة العنب، ١١٠ وما بعدها.

خارجها، وهو ما حوّله إلى «عَبْد» للمادة (المال/ المتعة) تحكمه أو تستعبده، فضاعت القيم، وعمّ الفساد، وهذا هو سرّ التخلف الشنيع الذي تعانيه الأمة في كافةالمجالات، فالعبيد لا يستطيعون بناء الأوطان، ولا يقدرون على منافسة الشعوب الحرة...

ويلاحظ أن الموضوع الروائي لدى نجيب الكيلاني أخذ مساراً واضحاً ومحدداً بصفة عامة، دون أن يحدث له التواء أو غموض أو قصور، لأن الرؤية كانت واضحة ومحددة، وهي الرؤية الإسلامية في بساطتها وعفويتها، ودقتها أيضاً.. فقد كان يرصد الظاهرة، ثم يتعمق أسبابها الحقيقية في صدق موضوعي وفني، يدخله في دائرة المبادرة الشجاعة، التي يفتقدها الكثيرون ممن يلجأون إلى اللف والدوران والغمغمة دون أن يبين قصدهم أو تتضح غايتهم أو يظهر هدفهم.

إنه يواجه بالفن ـ في كل الأحوال ـ قضايا مجتمعه، مواجهة صريحة، قد لا يستريح إليها البعض، ولكنها تُشرِّح هذه القضايا، مهما كانت عملية التشريح قاسية، لنأخذ منها دليلاً يقودنا إلى عملية الإصلاح والبناء، وفي الوقت ذاته يمتعنا بشخوص حيّة وأحداث متميزة تظل في ذاكرتنا إلى أمد بعيد.

الشخصيات

يقول سومرست موم:

«إن الكاتب لا ينسخ نماذجه نسخاً من الحياة، ولكنه يقتبس منها ما هو بحاجة إليه. بضع ملامح استرعت انتباهه هنا. أو لفتة ذهنية أثارت خياله هناك. ومن ثم يأخذ في تشكيل شخصيته، ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل، بل ما يعنيه حقاً، هو أن يخلق وحدة منسجمة، محتملة الوجود، تتفق وأغراضه الخاصة[1].

ونجيب الكيلاني يصنع شخوصه من الواقع المحيط بنا والمألوف لدينا.. إنها نماذج نقابلها، بل نعاشرها أو نتعايش معها في كثير من الأحيان، ولكنه يشكلها بذكاء،ويختارها بوعي، لتحقق الوحدة المنسجمة، المحتملة الوجود (أو المتحققة الوجود بالفعل) كما يقول «سورمست موم».

وشخصيات الكيلاني في رواياته التي بين أيدينا، تزخر بالحياة في مجموعها، صحيح أن بعضها يندرج تحت ما يسمى الشخصيات الجاهزة، أو المسطحة، ولكننا نعثر على شخصية رئيسة على الأقل في كل رواية تقدم لنا معالمها من الداخل والخارج، في حياتها الخاصة والعامة، بحيث نراها بلا رتوش ولا أصباغ، تتفاعل مع الحياة في حال قوتها وحال ضعفها.. إنها شخصية بشرية بكل ما يعتري الشخصية البشرية من تقلبات وتغيرات، ومد وجزر .. ليست شخصية «السوبرمان» على كل حال، وإنما شخصية الإنسان العادي الذي يفرح ويحزن، ويبتهج ويكتئب، يقوى إيمانه على مرّ الأيام، ويهتز هذا الإيمان في لحظات الضعف والتعب، وإن كان يعود لإيمانه أقوى من ذي قبل.

ويمكننا أن نعثر على عدد هائل من الشخصيات في روايات نجيب الكيلاني ذات ألوان متعددة ومشارب شتى.. رجالاً ونساء وأطفالاً.. من الصالحين والطالحين .. والإيجابين والسلبيين .. والأخيار والأشرار، وسوف نحاول أن نركز الضوء على

---

(١) محمد يوسف نجم، فن القصة، ٩٣.

أهم هذه الشخصيات وملامحها، من خلال تصنيفها إلى مجموعات متشابهة في السلوك والقيم والأدوار، لنكتشف مدى اتساقها مع الأداء الروائي، ومدى انسجامها في التعبير عن رؤية الكاتب.

المجموعة الأولى [الشخصيات النقية]:

تبدو شخصية عبد المتجلي، من أقوى الشخصيات الحية التي رسمها الكاتب، ولعل ذلك يرجع إلى معايشته لها على امتداد روايتين (اعترافات عبد المتجلي، امرأة عبد المتجلي)، حيث أطلعنا الكاتب على حقيقتها من الداخل، وأرانا كيف تفكر، وكيف تستجيب للأحداث وتتفاعل معها سلباً أو إيجاباً، وعرّفنا معالم تكوينها الثقافي والاجتماعي، وكيف أثر هذا التكوين على توجيهاتها وانفعالاتها وآمالها وأحلامها، وطموحاتها.. ومن ثم؛ كانت غزارة المادة الإنسانية الحية التي طالعتنا على امتداد الرّوايتين دون أن نشعر بملل أو سأم، بل كنا في غاية اللهفة لمتابعة هذه المادة لنعرف إلى أي مدى ستصل، وإلى أي مدى ستقاوم هذا العالم المضطرم الذي تعيش فيه، وتصطلي بعذاباته وعنائه.

إن عبد المتجلي شاب من غمار الشباب الكثيرين الذي يسمونهم «بَطَالَة مقنّعة»، فهو يعمل بمجلس القرية الموجود في بلدته «كفر أبو سالم»، وليس له غرفة أو مكتب أو كرسي يجلس عليه (حالة عامة في مجالس القرى بالدولة كلها) كما لا يعرف توصيفاً لوظيفته، أو ماذا تسمى؟، يحمل شهادة متوسطة (دبلوم ثانوي صناعي قسم برادة ولحام)، ولكنه يعمل أحياناً في الأعمال الكتابية بالمجلس، ومنذ سنتين لم يدعه أحد لعمل شيء. وهو حريص على أن يدقق فيما يعمله، مما جعل رئيس المجلس يضيق به، وفضل ألا يستعين به في شيء، ولا يطالبه إلا بالتوقيع في دفتر الحضور والانصراف!.

يجسد عبد المتجلي مأساة الشباب من زملائه، فهم لا يعملون عملاً مجدياً، ويقبضون رواتبهم دون مقابل، ويعانون من البطالة المقنعة. وليس عبد المتجلي وحده في هذه الحال، بل هناك مائة وخمسة موظفين مِثْلَهُ في المجلس لا يعملون شيئاً، أما

الذين يؤدون عملاً حقيقياً فإنهم يعدون على أصابع اليد الواحدة.

وفوق ذلك، فإن شخصية عبد المتجلي تجسد مأساة جيل بأكمله، ووطن بأكمله، وتفكيره يتجاوز المألوف، ويكشف عن الفساد السائد، وإن كانت تستغرقه أحياناً القضايا الثانوية الهامشية، ويهمل القضايا الكبرى الرئيسية، فهو يهتم بالرشوة في وزارة الصناعة التي تشرت عنها الصحف، أكثر من اهتمامه بنقص مياه النيل التي تهدد المستقبل الزراعي في القرية، ولكنه يرى أن حلّ التناقضات لا يتم إلا بالبحث عن الجذور وتعمق الأسباب، ولعل ذلك يرجع إلى كونه مثقفاً وقارئاً يُدمِن القراءة، ويسعى أن يكون التقدم المادي قائماً في بلده «كمبيوتر لكل مواطن»، وحين يقول له الحاج تهامي : «الرغيف أولاً » يرد عليه :

«هذه مقولة ساقطة ... نرددها دائماً، فالرغيف موجود، والله لن يحرمنا من الحد الأدنى لحياتنا الحيوانية .. والكمبيوتر لن يمدنا بالأرقام والمعلومات فحسب، ولكنه سيثمر خبزاً، وفاكهة، وشيكولاته أيضاً»[1].

وتبدو شخصية عبد المتجلي مثالية في تصوّراتها، حالمة في طموحاتها، وإن كان الواقع المرير يشدّه بعنف ويوقظه من أحلامه وتصوراته :

[يقول عبد المتجلي الذي لم تتح له فرصة التعليم في معاهد الأزهر :

«ــ أموالنا حرام.. طعامنا حرام.. حياتنا نجاسة..»

أطلقوا عليه بالأمس «عبد المتجلي» المجذوب!][2].

تبدو من هذا المنطلق مثاليته المطلقة، ورفضه الكامل للواقع، ومن ثم جاءت فكرة بحثه عن «الونش»، كأنها جاءت أو صدرت عن مجنون، لا يعرف اليأس بسهولة، بالرغم من تحالفه مع الفشل ألف مرة، فأصبح حليف النكسات والهزائم.. وإن كان يمكن القول إنه رمز للصمود والتصدي، فهو يتصدى للعمدة الذي يفرض إتاوات على الفلاحين، ولكنه ينهزم أمامه، كما تعرض لمساءلات قانونية كادت تؤدي به إلى

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٢٠٤.

(٢) السابق، ٩.

السجن عندما عجز عن إثبات وجود اختلاسات في ميزانية المجلس، أيضاً أوسعوه ضرباً على قدميه بالفلقة في المركز عند تصديه للإدارة الممالئة لتجريف الأراضي الزراعية في كفر أبو سالم.. ولكنها المرة الوحيدة التي نجح فيها مما أجبر تجار الطين والتجريف إلى الانتقال إلى قرى مجاورة..

إن الواقع المرير والإحباطات العديدة التي يعانيها تجنح به في كثير من الأحيان إلى نوبات من اليأس والحزن، كما تتزعزع لديه قصور القيم والأحلام التي يبنيها في خياله حتى توشك على الانهيار.. ولكنها تقاوم في استماتة حرصاً على الحلم والحرية.

ويتذكر عبد المتجلي أن أعداء الشعب الحقيقيين هم اللصوص والمستغلون وحملة السياط. والحرية والعدالة والعلم والعمل أسس الخروج من المأزق. وهي قضايا يؤمن بها أي إنسان طبيعي حرّ على وجه الأرض[1].

إن الضعف الإنساني من خصائص شخصية عبد المتجلي المحورية، فهو ليس (السوبرمان) الذي لا ينهزم والذي لا يخطئ ولكنه يتعرض لكثير من الهزائم والأخطاء ومع ذلك يواجهها بصبر وإرادة .. يتألم ويأسى لكن الإصرار ينسيه الألم والأسى، وبالرغم من كل شيء، يحلم ويواصل الحلم، ولا شك أن التصور الإسلامي كان من وراء صموده.

«.. كان يتأرجح بين الشك واليقين، بين المثالية التي يحلم بها، والواقعية التي تهيمن على السوق، كان عبد المتجلي يتمنى أن يوجد في هذا العصر رجل كعثمان بن عفان يتبرع بحمولة ألف بعير للجائعين والمحتاجين كما حدث في التاريخ، لكن العصر ليس عصر الصحابة، ولكنه عصر الذئاب الجائعة التي تنهش لحوم الأحياء والأموات على حد سواء ..»[2].

وبعد ذلك وقبله، فإن «عبد المتجلي» إنسان عادي مثل بقية الناس، يتزوج وينجب ويختلف مع زوجته ويصل الخلاف إلى حدّ الطلاق ثم المصالحة، ويجد في حياة

---

(١) امرأة عبد المتجلي ، ١١٢، وما بعدها.

(٢) السابق ، ١٠١.

الرضاء متعة تختلف عن قسوة حياة الفقر، ويحمل هموم أمه ، ويسعى لتزويج أخته...

إن عبد المتجلي نموذج حيّ للشخصية الروائية المتنامية التي تحمل نبض الإنسان ومشاعره وأشواقه في الحرية والعدل والتقدم والطهارة.

على العكس من شخصية «عبد المتجلي»، نجد شخصية الشيخ «محمد أحمد حسب الله» في رواية «ملكة العنب» فهو شخصية جاهزة إلى حدٍ ما ، لم يتوغل المؤلف في أعماقها، وإن كان قد قدمه إلينا شاباً مستقيماً يواجه الواقع بصلابة وإرادة.. صحيح أننا قد نعثر على بعض المواقف التي يكشف فيها المؤلف عن داخل الشيخ محمد مثل رغبته في الزواج من «براعم»، ولكنه يجعل منه شخصية مثالية قد تتأبى على الألم في مواقف الألم، مثلما رأيناه عند تعذيبه من قبل الجلادين، فإنه يغالب الآه والصراخ، بل إننا نراه يجري على ساقه أو قدمه الموجوعة منذ زمان، وكأن التعذيب منحة لا محنة.

والشيخ محمد يمثل صورة عالم الدين المثلى، فمع أنه شاب في الثلاثين، أسمر وسيم، فإنه لا يرفع عينيه عن الأرض إلا بقدر الضرورة. يطلقون عليه «الرجل الصالح». وهو عدوٌ لدود للكذب والنفاق والظلم والتعالم. مهنته الأصلية التدريس، ولكنه يصلي بالناس ويخطب الجمعة. كافح بعد وفاة والده الفقير حتى حصل على الشهادة العالية. ومن منطلق وعيه الإسلامي يثير في خطبته قضية «زكاة العنب» الذي يزرعه الفلاحون بدلاً من الحبوب، فيسود اللغط والجدل، حول مدى مشروعية هذه الزكاة، فيندفع بعض الفقراء إلى القول :

« ــ إذا لم نأخذ حقنا بالشرع، فسوف نأخذه بالقوة»[1].

ولا يأبه الشيخ «محمد حسب الله» بتهديدات أصحاب العنب ممثلين في «براعم» أو ملكة العنب، التي تواجهه بالغضب والحنق والاتهام بإثارة الفتنة، فيرد عليها واثقاً :

«ــ إن عالم الدين لا يأخذ إذناً من أحد حينما يريد أن يقول الحق.. وفي حديث

(١) ملكة العنب، ٦/٥.

أبي ذر، أوصاني خليلي أن أقول الحق ولو كان مراً»[1].

ثم يفهمها الشيخ محمد أن المنبر «ليس بوقاً من أبواق الحكومة، ولكنه مكان طاهر تنطلق منه كلمات الله»[2].

إنّ الإرادة الصلبة التي تتميز بها شخصية الشيخ محمد حسب الله، كانت وراء الكثير من المتاعب التي جرّها على نفسه وقريته منذ فجرّ قضية زكاة العنب حتى وقوعه تحت سياط الجلادين، مروراً بوقوفه وحده بجوار جثة قريبه الذي قتله العراقيون، عند تشييع جنازته، وبعد تدخل قوات الأمن لتفريق المشيعين!.

ولعل هذا الموقف المثالي الذي وقفه الشيخ محمد حسب الله، دون أن نرى أعماقه الوجدانية وأطواره النفسية، يعود إلى طبيعة عمله إماماً وخطيباً، ولعل المؤلف أراد أن يجنب «عالم الدين» الذي يمثله الشيخ محمد حالات الضعف الإنساني التي تعتري غيره من الناس، فجاء على تلك الصورة المضيئة المشعة، حتى في حالات القهر والقمع.

وهناك شخصية قريبة من شخصية الشيخ محمد، تبدو أكثر بساطة وأقوى تأثيراً، وهي شخصية «أبو المجد شاهين» ذلك الفلاح الشيخ، الذي يتصف بالزهد والورع، ويتعامل مع الأحداث ببساطة ويسر، وإن كان ينحاز دائماً للإسلام وما يمثله من حق وعدل وطهارة، وهو يمثل صورة الفلاح المسلم في غير غلو أو تنطع، مما يمكن أن نعدّه رمزاً للدعوة الخالصة إلى تطبيق الشريعة، والعودة إلى روح الإسلام، فهو يرى أن عدم احترام الشرع وضعف الإيمان وراء استباحة كل شيء : السرقة، الزنا، القتل، شهادة الزور، الرشوه...[3].

ومع بساطة أبو المجد شاهين، وطيبته الفطرية،فإنه يقاوم بإيمانه وصبره سياط الجلادين، بل إن وعيه الذي يتجاوز الحاضر إلى المستقبل يؤثر في جلاديه الذين

---

(١) السابق، ٩.

(٢) نفسه، ١٠.

(٣) نفسه، ٢٧.

يكفون عن تعذيبه، ويعملون على إخراجه من الحبس، بعد أن أثر عليهم بأقواله وتصرفاته!!.

إنّ شخصية «أبو المجد» تبدو أقرب إلى المثالية، ولكن بساطتها وعفويتها في التعامل، وتأثيرها الفطري على الناس، يجعلها حيّة وفاعلة، بل تحفر لنفسها مكاناً في ذاكرة من يقرأ الرواية.

أيضاً، هناك شخصية الطالب الشاب «شعبان عبد اللطيف»، وهو أزهري من طلاب أصول الدين ويعمل على نشر الدين الصحيح، ويأخذ مواقف واضحة من الفساد والواقع الاجتماعي. ويعلن رأيه في الأحداث والأشخاص، مثل رأيه في اللواء الشريجي زوج «عنايات هانم».

«إن اللواء الشريجي باشا رجل فاسد فاسق، وأنه كان على علاقة مع يهودية، كما كان على صلة وثيقة بالانجليز، وقدم لهم الكثير من المعلومات عن حركة المقاومة..»[1].

و«شعبان عبد اللطيف» مثله مثل كثير من الشباب المرتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً، ويتوق إلى تطبيق الشريعة والدفاع عنها، ويضحي في سبيلها إلى أخر مدى.. ولكنه مرسوم فنياً من الخارج، ولعل ذلك يرجع إلى كونه شخصية ثانوية..

وإذا عددنا الشخصيات السابقة نماذج للتدين الإيجابي ـ أو الحركة الاجتماعية وفق وعي ناضج بالإسلام وتصوراته، مع تفاوت في بنائها الفني ونوعيتها؛ فإن هناك نماذج لما يمكن أن نسميه بالتدين السلبي أو الزهد الذي يعتزل الحياة والواقع، وإن كان يحتفظ في قرارة أعماقه بنقاء السريرة وصفاء الفطرة، وقد يصنع منه الكاتب رمزاً للنجاة، أو يجري على لسانه ما يعد طريقاً للنجاة .. ويلجأ إليه بطل الرواية ليجد عنده حلاً ينقذه من الحيرة والتخبط، كما نرى عند شيخ الخلوة في مسجد السيدة زينب الذي يلجأ إليه عبد المتجلي كلما ادلهمت أمامه الدنيا :

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٣٠.

« أين أتجه؟.

– وهل هناك سواه ؟.

وهكذا يمضي الحوار الذي يعيد عبد المتجلي إلى صوابه، حيث يذكره بالعودة إلى الأم ــ ولعلها مصر، أو هي كذلك بالتأكيد ــ ويشير إليها بقوله : «في أحضانها الحب والزرع الأخضر والأمن والسلام»(١).

أو يذكره بتلك العبارة : «ليس في بلادنا من يموت جوعاً»(٢).

وإذا كان شيخ الخلوة، الذي يتسم بالمهابة والنورانية والصفاء، لا تظهر من ملامحه وصفاته ومعالمه في المعترك الإجتماعي اليومي أية آثار أو انفعالات، فإن أهل التدين السلبي تظهر مواقفهم جليّة من المجتمع فالدراويش في أذكارهم ومدائحهم يستمعون لشيخهم المداح، وهو يشرح لهم معنى قوله تعالى «**عليكم أنفسكم**»(٣)، ويتلخص من الذكر والجد في تحصيل الرزق ورعاية العيال والإحسان إلى الجار، وعدم الانشغال بأمور السياسة ومشاغل الدنيا التي يزينها الشيطان(٤).

وعندما تتوارد أنباء الفضيحة الخاصة باللواء الشريجي وزوجته الشابة، ينزعج الشيخ المداح انزعاجاً شديداً، لأن ما يجري ببساطة شديدة صرف الناس عن ذكر الله. إنه ضرب من اللهو في رأيه، ويكاد يصرفهم عن تحصيل الرزق، ورعاية أسرهم، وكان الذي يضايقه أكثر أن رواد المساجد في القرية لا يكفون عن الحديث في أمر الفضيحة(٥).

إذاً فالشيخ المداح لا يريد تجاوز الاهتمام بالذكر والرزق، وهو ما يعني أن يعيش الناس بعيداً عما يجري سواء كان له علاقة بواقعهم ومستقبلهم أولم تكن له علاقة، مما

---

(١) امرأة عبد المتجلي ٥٠.

(٢) السابق، ٥٤.

(٣) سورة المائدة : ١٠٥.

(٤) قضية أبو الفتوح الشرقاوي ، ٣٩.

(٥) السابق، ٤٦.

يعني أن الإسلام من وجهة نظره قاصر على العبادات فحسب.. وبالرغم من هذا المفهوم القاصر، فإن للرجل حضوراً وتأثيراً على أفئدة الناس، فقد كانت وفاته بالأراضي المقدسة، ودفنه بالبقيع، ذات صدى عميق في نفوس أهل القرية، وقد وصفوه بأنه «الصوت الصادق في قريتنا»[١].. ولعل هذه السلبية تجد تعليلاً معقولاً إذا استمعنا لمقولته التي وردت على لسانه قبل سفره إلى الحج حين رأى المجتمع والعصر لا يمثلان ما يبغي أو ما يريده الإسلام :

«هذا عصر الضلال ... وبنوه ضالون ومضلون.. لم يعد أحد يعرف الصدق من الكذب.. ولا الوهم من الحقيقة.. إنهم يصنعون المواقف.. وكل شيء على هواهم.. والناس ضائعون[٢].

وإذا كان انحراف الناس تعليلاً معقولاً للانسحاب من الواقع، فإنه من ناحية أخرى يحتم على العلماء والشيوخ أن يقوموا بدورهم في الاصلاح والتصدي للأمراض الاجتماعية.. ولكن نمط الشخصية السلبية موجودة وقائمة في المجتمع .. وكأن الكاتب أراد أن يقول لقرائه : هاكم النمط السلبي في مقابل النمط الإيجابي.. فوازنوا واختاروا.

ثمة شخصية يمكن إلحاقها بشخصيات هذه المجموعة. إنها شخصية متحولة انتقلت من عالم الضياع والضلال ، وكانت ضحية لقهرٍ لم تتوقعه، إلى عالم السكينة والسلام والهدى.. إنها شخصية «أبو الفتوح الشرقاوي» الذي حملت الرواية اسمه .. فقد كان لصاً يهوى الكذب، وبدأ يجلب على نفسه المتاعب بادعائه أنه رأى جثة القتيلة المزعومة «عنايات هانم» زوجة «اللواء الشريجي»، وتطور هذا الادعاء على يد الشرطة نتيجة للتعذيب إلى اعتراف تفصيلي كاذب بأنه هو الذي خنق عنايات البحيري، وتقاضى مقابل ذلك مئة جنيه عداً ونقداً[٣]، ولكنه لا يعرف أين ذهبوا

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي ١١٤.

(٢) السابق، ٨٨.

(٣) مئة جنيه في ذلك الزمان تساوي مبلغا هائلاً في زماننا، وكان من الممكن أن تكون ثمناً لعدة أفدنة، أي ما يساوي عشرات الألوف بسعر اليوم.

بالجثة ولا الأشخاص الذين كلفوه بالمهمة ودفعوا له الثمن، ثم تتطور المسألة إلى ملابسات يدفع أبو الفتوح ثمناً لها معاناة وتعذيباً إلى أن تتحول قضيته إلى قضية عامة تشغل المجتمع كله؛ الدولة، والأحزاب، والصحافة، وعامة الناس، وخاصة بعد الإفراج عنه، حيث تبدأ حياته في التحول، والانتقال إلى التدين والتزام الطريق المستقيم سلوكاً وأخلاقاً ..

بيد أننا نكتشف على مدى الرواية تعليلاً لإدمانه الكذب سبب مصائبه ومشكلاته، وهو المعاملة السيئة من جانب زوج أبيه وهو صغير، فقد ضربته ضرباً مبرحاً بسبب قطعة لحم، فلم يجد مخرجاً إلا الزعم بأن القطة هي التي أكلتها، وسار على هذا المنوال في أشياء أخرى.. ومن وجهة نظره، فإن الكذب سمة عامة للمجتمع .. البضائع كلها مسعّرة، ولكن أحداً لا يطبق التسعيرة ولا يبيع بها، وأكبر سلعةاليوم هي الكلام في الجرائد والإذاعة، ولدى المحامي، والمدرس، والمؤلف، والوزير، والعمدة، وشيخ البلد، وشيخ الخفر، والكتاب.. كلهم كذابون، والناس، في بلدنا يستمتعون بالكذب، ويرفهون عن أنفسهم..والحكومة تريد الكذب حسب مصلحتها، وأنا طول عمري ثرثار.. أعني كذاب.. وقد أخذت جزائي، ليس في حياتي قصة لها قيمة.. لم أكن قاتلاً مأجوراً.. ولا عمدة ولا شيخ خفر.. ولا..»[1].

ومع أن «أبو الفتوح» كذاب ولص، فإن وعيه السياسي كما رسمه الكاتب يبدو أكبر من مستواه الثقافي ووضعه الاجتماعي، فهو يفكر داخل السجن للخروج من محنته، في السفر إلى القاهرة، والدخول إلى قصر الملك خفية عن طريق الحديقة لكنه وجد أن مقابلة «النحاس» باشا، زعيم حزب الوفد أيسر، لم يكن يحب الوفد، وكان يكره أحمد ماهر باشا وحزب السعديين ـ والكراهية غير معروفة السبب ـ لكنه بالنسبة للإخوان المسلمين، فكان يرى أنهم أسمى وأنقى من أن يلوث مجالسهم بأنفاس التبغ والحشيش التي ينفثها من آن لآخر، كان يخاف أن يشموا رائحته، وهو يهابهم ويحترمهم، لأنهم على حدّ تعبيره (من أهل الله)، وعندما يتفضل الله عليه

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي ، ٩١.

بالتوبة «فسوف يترك الجميع ويذهب إليهم نقياً نظيفاً..»[1].

ولعل وعي «أبو الفتوح» السياسي الناضج، الذي صوّره الكاتب، يجد له مسوغاً، إذا عرفنا أن تلك الفترة التي جرت فيها أحداث الرواية، كانت تتميز بالنضج السياسي بصفة عامة، وكانت حافلة بالصراع الحزبي والوطني، وكان وجود الاستعمار الانجليزي يُشعل هذا الصراع ويؤججه، لدرجة أن يصل صداه إلى كل بقعة وكل بيت في الوطن...

ولا شك أن جمعية الإخوان المسلمين كان لها آنئذ حضور قوي في وجدان الكثيرين، وبخاصة في القرى والأرياف، نظراً لطبيعة دعوتها، وما تقدمه من خدمات، ويُعزى تحول «أبو الفتوح» بعد خروجه من السجن، وانضمامه إلى الجمعية، إلى ما قدمته له من مساعدة (إخفائه عن المطاردين له، وتوكيل محامٍ كبير للدفاع عنه) بوساطة الطالب شعبان عبد اللطيف الذي سبقت الإشارة إليه[2].

لقد صار «أبو الفتوح الشرقاوي» رجلاً صالحاً بعد أن تخلى عن الكذب واللصوصية، وبعد أن مرّ بتجربة مريرة وقاسية ذاق فيها الويل والعذاب، وأصبح يدعو إلى الله وإلى نظافة القول والسلوك.

ويمكن القول إن هذه المجموعة تمثل العنصر الخير الذي يقاوم الفساد ويسعى إلى الإصلاح ويحمل عبء الدفاع عن هوية الأمة وحريتها وكرامتها أو على الأقل ينشد الخير لنفسه، والسلام مع النفس والمجتمع.

المجموعة الثانية [شخصيات نسائية]

وتعدّ هذه المجموعة امتداداً للمجموعة الأولى، وإن كانت تشمل معظم الشخصيات النسائية في الروايات الأربع، وهي شخصيات فاعلة ونشطة وإيجابية بدرجات متفاوتة، وتبرز بصورة ما دور المرأة بوصفها مؤثراً في الأحداث والشخوص.. والجديد هنا أن الكاتب يجعل المرأة ذات حضور اقتصادي

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٢٠.

(٢) انظر صفحة ٣٠ من هذا البحث.

واجتماعي، ويتضح ذلك من شخصية «أم صابرين»، امرأة عبد المتجلي، و«براعم» ملكة العنب، وكلتا المرأتين تواجه المجتمع تاجرة أو زارعة وتحقق وجوداً فعّالاً يؤثر في الآخرين سواء باستخدامهم أو التفضل عليهم أو إفادة جموع الناس بإقامة المشروعات أو الإسهام القوي فيها.

وتبدو شخصية «أم صابرين» أكثر غنى فنياً، وثراءً روائياً، بحكم ما شهدته من أحداث وما خاضته من أزمات، كشفت عن طبيعة فكرها، وملامح شعورها.

لقد تعرف عليها «عبد المتجلي» في الميدان الذي سرق منه «الونش». وهي امرأة ممتلئة عليها مسحة من وسامة، يبدو أنها في العقد الرابع من عمرها، تقف في «كشك» صغير في طرف الميدان، تبيع السجائر والبسكويت والحلوى.. وقد اشترى منها «عبد المتجلي» زجاجة «كوكا كولا»، ودار بينهما حوار خشن.

- من أي داهية أتيت؟.

- الغربية.

- تعني فلاح.

- لماذا التجريح؟.

- أحب الصراحة .. هل تضايقت؟.

- أعرف أنك تمزحين..»[1].

- ومن ثم تبدأ علاقة تنتهي بالزواج والإنجاب والمشاركة في مسار حياة.. وتخبرنا الرواية أن المرأة لها طفلة يتيمة اسمها صابرين، عمرها ثلاث سنوات، مات أبوها في حادث طريق وهو يدفع عربة يد ممتلئة بالخضروات كان يتكسب منها.

وبعد ذهابها مع عبد المتجلي إلى «كفر أبو سالم»، تحدث انقلاباً خطيراً في حياته، حيث تقوم بالإعداد لمشروع تجاري، وتقنع زوجها بطريقة عملية ليقبل المشروع، وتسوّق تجارتها في البداية منزلياً، وتكشف عن وجهها «البراجماتي» العملي الذي

(١) اعترافات عبد المتجلي ، ٣٧.

يتعاكس مع توجه عبد المتجلي «المثالي» :

« – إنك تضعيننا أمام الأمر الواقع.

قالت باسمة :

– إن مرتبك لا يكفي لإطعام البقرة والحمار.

أدرك أنها على حق، فقال :

– ثم ماذا بعد ذلك؟.

– بقي أن نعلن عن افتتاح المحل..

ضحك وقال :

– ونطلق عليه «سوبرماركت» أم صاربين!

– ولم لا ؟ أنت موظف ولا يحق لك التجارة»(١).

وبحكم خبرتها أو حسّها التجاري تنمو تجارتها وتتوسع، وتتعامل مع الناس بطريقة حسنةوتكسبهم إلى جانبها، مع التزامها بصورة المرأة المسلمة المحافظة، وقد جعلها تعاطفها مع الناس ومساعدتها للفقراء «ولية من أولياء الله الصالحين» كما كانوا يشيرون إليها، فقد منحتهم القروض والمساعدات وجاملتهم في المناسبات، وشاركتهم في البهائم وماكينات الري والزراعة وأسهمت في ترميم المساجد والمدارس، ووفرت حافلة للنقل من القرية إلى المدينة والقرى المجاورة، وبنت مقابر للصدقة، ورصدت جوائز للمتفوقين في المدارس وحفظ القرآن الكريم، وقدمت معونات لأصحاب الكتاتيب..الخ.

وفي مقابل هذا الوجه المشرق، فإنها استطاعت السيطرة على أصحاب القرار في القرية والمدينة عن طريق ما تقدمه من إكراميات وهدايا أو ما يسمى «رشاوى» مقنعة، وهو ما أثار قلق زوجها عبد المتجلي، وأدى إلى مضاعفات غير حميدة من العلاقة بين

---

(١) امرأة عبد المتجلي ، ٧.

الزوجين، لأنها من ناحية تصرّ على منهجها الذي يرى الدنيا سوقاً ينبغي أن تتعامل معه بلغة السوق، ومن ناحية أخرى فإن عبد المتجلي يرى المسائل بصورة أخرى تتناقض مع رؤية زوجه :

«العمدة أصبحت رقبته في يدي، وضابط النقطة رهن إشارة مني، ورئيسكم في المجلس القروي كالكلب الذي يقنع بالعظمة بشرط أن يكون فيها بقايا..

هزّ رأسه كأنه ينفض عنه آثار نوم ثقيل :

– هل أصابك الجنون، أم أنك تحلمين؟.

– العالم كله سوق يا عبد المتجلي»[1].

ولا شك أن هذا التناقض بين الزوجين كان سبباً في تدهور العلاقات بينهما، مما أدى إلى الطلاق صحيح أنه جرت محاولات للصلح بينهما، وقد تم بالفعل، ولكن اعتراضات عبد المتجلي انصبت على منهجها وتطور حياتها، فهو يرى المشكلة الرئيسية في تجمع خيوط السلطة في يدها، الإدارة خاضعة لها، وأهل القرية يحترمونها ويطيعونها، بسبب قوتها الاقتصادية وبراعة مسلكها، وهنا مكمن الخطر، لأنها فرد واحد، ولا يوجد ضمان من أن تتحول بين يوم وليلة إلى ديكتاتور، فيخضع الجميع لحكم الفرد المطلق «ولنا الويل إذا حدث ذلك فهي بشر»[2].. لقد صارت الأمور بهذا الشكل نذيراً بالخطر، وكثيراً ما ألح عبد المتجلي على هذا المعنى : «بنت لي قصراً. أنجبت لي قمرين : منصور ومندور. أغرقتني في المال والنعيم. وأخضعت لإرادتنا القوى المضادة، أصبحت حاكماً بأمرها..»[3].

إن شخصية أم صابرين القوية وجمعها للمتناقضات (الالتزام الديني والخلقي، مساعدة الناس، بناء القوة الاقتصادية، السيطرةعلى الإدارة)، لم تسلم من مخاطر هذه التناقضات، وكانت ضحية لها حينما تآمرت عليها «مافيا» السوق، لأنها لم

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٣٢.

(٢) السابق، ١٠٦.

(٣) نفسه، ١١٢.

تخضع لإرادة زعمائها، وكانت نهايتها المأساوية الدامية، حيث قتلت في عقر دارها، وتركت أطفالها وزوجها يحصدون المرارة والأسى، لقد انهزمت «لغةالسوق» في النهاية، لأنه لا يصح إلا الصحيح، ومهما كان «للبراجماتية» من أسباب ومسوغات، فإن الاستقامة خير وأبقى.

النموذج الثاني الذي يقابل «أم صابرين» مع تشابه فيما بينهما، هو شخصية «براعم» التي أطلق عليها الناس في القرية «ملكة العنب» ـ على غرار ملكة الجمال ـ فهي فتاة قروية حصلت على الشهادة الإعدادية، ولم تكمل تعليمها، فقد تحملت عبء استمرار الأسرة بعد وفاة والدها، وقد كافحت وصارت من أمهر زراع العنب في الفدادين التي ورثتها عن أبيها، والفدادين التي تستأجرها من الآخرين، وقد خضع لها احتراماً وتقديراً أهل القرية : العمدة، المجلس المحلي، ضابط النقطة، وهي صاحبة أفضال على الجميع، وقامت بترميم المدرسة وبناء المسجد وفتحت أبوب الرزق أمام الكثيرين.

— وهنا نجد المشابهة بينها وبين أم صابرين واضحة وتكاد تكون متطابقة ـ وتضيف الرواية توصيفاً لبراعم أو ملكة العنب أنه لم يعرف عنها قط ما يشين سلوكها، وقد حاول الكثيرون خطبتها، ولكنها رفضت، حتى تزوجت من الشيخ محمد حسب الله، إمام المسجد في ختام الرواية.

الفارق بين أم صابرين وبراعم أن الأخيرة أقل جسارة في اقتحام المشكلات، وأقرب إلى الاهتمام بدائرة عملها، وأبعد عن المشاركات الاجتماعية غير المحسوبة، ولعل هذا الفارق يرجع إلى نشأتها الريفية المتوجسة الحذرة التي تضع كل اهتماماتها في العمل والتركيز عليه (الزراعة)، أما «أم صاربين» فهي بنت المدينة الجسور المفتحة التي تفهم السوق وألاعيبها (التجارة) وتواجهها بالأسلوب الناجع.. وبالاضافة إلى ما سبق، فإن «براعم» تبدو أقرب إلى الاستجابة للنصح والقبول بالمشورة (نصائح أبو المجد شاهين أثمرت لديها وانتهت بها إلى الزواج)، أما أم صابرين فتبدو معتدة برأيها مع قدرة على الاقناع، ثم صلابة الإرادة والتصميم على تنفيذ الفعل، وكان ذلك من

أسباب طلاقها.

إن شخصية «براعم» تبدو إيجابية في إطار البيئة والتربية، بل تبدو في بعض الأحيان معبرة عن أصالة البيئة في النخوة والشهامة التي يتصف بها الرجال عادة، فعندما اعتقلت السلطات مشيعي جنازة الشاب الذي قتله العراقيون، لم تقف ساكنة،ولم تخش من حالة الخوف والتوتر التي تسود القضية، وذهبت إلى المحامية ذات النفوذ ومنحتها مبلغاً ضخماً بعد أن حصلت على وعدٍ منها بإطلاق سراح المعتقلين، وقد كان..

قد تظهر للقارئ ملامح غنية فنياً لشخصية أم صابرين، أكثر من «براعم»، ولعل هذا يعود إلى أن الشخصية الأولى أتيح لها أن تأخذ مساحة روائية وزمنية أكبر بكثير من «براعم»، فقد تناولها الكاتب على مدى روايتين، بل إن إحداهما تحمل اسمها «امرأة عبد المتجلي»، ولكن «براعم» في كل الأحوال تبدو متناسبة مع الإطار الذي عولجت فيه.

هناك شخصيات نسائية ثانوية، ومع هامشية وجودها الروائي إلا إنها تسهم في إثراء الحدث وبلورة الشخصية الرئيسية..

فهناك مثلاً «رمانة» أم «عبد المتجلي» وتأمل دلالة الاسم، وتمثل حالة الصبر الجميل على مآسي الحياة وصدماتها، كما تمثل أيضاً حالة الحب الغامر للأبناء، والتبشير بانفراج الأحوال، وانتظار الأمل القادم.

وهناك مثلاً «مِسْعدة» أم «محمد حسب الله» ـ وتأمل أيضاً دلالة الاسم ـ وتمثل ذلك الدأب والرغبة في مقاومة جفاف الحياة، من خلال احتفائها بجاموستها التي تعدها صديقة لها، وتشتبك معها في عراك لفظي، وبخاصة عندما تحلبها، ثم تصالحها بعدئذ، مما يعبّر عن طيبة القلب وبساطة التفكير.

وهناك مثلاً «قطيفة» زوجة «أبو الفتوح» ـ وتأمل كذلك دلالة الاسم ـ وهي شخصية حيّة تفيض بالمشاعر والاستجابة لما يجري لزوجها، مع أنها فلاحة بسيطة، ولكنها تفعل ما تستطيع من أجله، بل تغامر ببيع قطعة الأرض التي تملكها للإفراج

عنه، وفضلاً عن ذلك فهي مثال للارتباط بالقرية والأرض.

وهؤلاء النسوة يمثلن شخصية المرأة الفلاحة البسيطة، في وفائها وحنانها وعطائها استجابة لفطرتها الإنسانية الصافية.. على العكس من شخصية أخرى مثل «عنايات هانم البحيري» مثلاً، زوجة اللواء الشريجي باشا، فقد تركت زوجها واختفت، ولم تعبأ بقيم الزواج أو تقاليد المجتمع، ولم تضع حساباً لما يمكن أن يقال عن اختفائها أو الشائعات التي ستدور حولها.

ولعل الكاتب أراد في هذا السياق أن يدلل أو يؤكد على أن الإنسان ابن بيئته أو تربيته، وهو ما بدا في القرية حيث كانت الشخصيات النسائية أكثر وفاء وانتماء لأسرهن، من نساء المدينة.

المجموعة الثالثة [الشخصيات الشريرة]:

وتمثل هذه المجموعة ما يمكن أن يسمى رجال الإدارة وتشمل العمدة وشيخ الخفراء وضابط النقطة أو ضابط الأمن عموماً، وممثل السلطة التنفيذية، والنائب عن الدائرة، وهي شخصيات تتسم عادة بالاستعلاء واستغلال النفوذ وتحقيق المصالح الخاصة وعدّ الناس معادين دائماً للإدارة، مما يترتب عليه معاملتهم بالقسوة والعنف،وإن وقع بعض شخوص المجموعة نفسها ضحية لهذا العنف وتلك القسوة عندما شذّ عن الإطار المسموح به من قبل الإدارة.

والعمدة شخصية لها حضور مؤثر وفعال، بالنسبة للإدارة والناس على السواء، فالإدارة تلجأ إليه لتنفيذ إرادتها، وهو يلجأ إليها لتلبية رغباته، والعلاقة بينهما علاقة سُرِّية، فوجوده مرتبط بوجودها، لذا فإنه لا يستطيع الانفصال عنها أو التمرد عليها إلا إذا أوتي خصائص معينة، ويمكن أن نجد مثالاً لهذا وذاك في عمدة «عبد المتجلي» وعمدة «ملكةالعنب»..

عمدة «عبد المتجلي» اسمه الحاج «إبراهيم رضوان»، وهو رمز للقمع، وتنفيذ أوامر الإدارة بتشدد مبالغ فيه، وقد رسمه الكاتب من الخارج، قدم لنا أفعاله وسلوكه وأقواله، ولم يقدمه لنا من الداخل، وهو امتداد لفساد الإدارة وانحرافها وإصرارها

على القمع الشامل الكامل، ويفسر كلام «عبد المتجلي» في المسجد حول السرقة واللصوص، على أنه يدخل في إطار التطرف والحركات الهدامة ! بل ينذر عبد المتجلي إنذاراً أخيراً، ويستخدم شيخ الخفراء في تنفيذ إنذاراته وتهديداته، كما يبدو العمدة شخصاً ملتوياً خبيثاً ذا ابتسامة ثعبانية حين يستغل الأحداث الجارية في الترهيب والتخويف :

« – البلد فيها حركة اعتقالات يا عبد المتجلي.. ألم تسمع عنها يا ابني؟»[1].

ويوظف العمدة «إبراهيم رضوان» هذا التخويف وذلك الترغيب، في منع الناس من الكلام مجرد كلام في أي قضية تعنيهم مما يفيد أن القمع مطلب سلطوي يهدف إلى تهميش المواطن وإبعاده عن مناقشة أية مشكلة ذات صلة بالدولة أو الوطن .. مجرد مناقشة.

على النقيض من عمدة «عبد المتجلي» أو «كفر أبو سالم»، يأتي عمدة «ملكة العنب» أو «الربايعة»، وهوالحاج «عبد الشافي وهدان» من أسرة طيبة، يسّر الله له الحج سبع مرات، ولديه من الأراضي الزراعية والأموال والمواشي ما يكفيه، وأولاده يتولون المناصب المرموقة، وأخوه الكبير ـ يرحمه الله ـ كان من ضباط الثورة، وهو عادل محترم من الجميع، ولا يتردد في القسوة عند اللزوم كي لا يفلت الزمام، ولكنه يتحرى الحقيقة تحت أي ظرف من الظروف.. قضى بضع سنوات في الأزهر، ولم يكمل إلا الابتدائية.

عندما داهمت قوات الأمن جنازة قتيل العراق، وقبضت على الناس، أعلن استقالته بلا تردد، واحتج على ما فعله الضباط والجنود دون مسوغ مقبول، وقد طلبت منه الداخلية البقاء في منصبه حتى تستقر الأوضاع.

إن الحاج عبد الشافي، بالنسبة لغيره نشاز، أو استثناء من القاعدة فالرجل لديه أساس ديني تربى ضميره عليه، وعنده أساس اقتصادي يمنعه من مدّ يده أو قبول الرشوة، ويملك أساساً اجتماعياً يتمثل في أسرته المعروفة وشخصيته القوية، وكلها

---

(١) اعترافات عبد المتجلي ، ص١٦.

عوامل تجعله يختلف عن العمدة السابق الذي يمثل سمة عامة لأغلب العمد.

وقد تعمق الكاتب شخصية الحاج عبد الشافي، فرأيناه، وهو يتفاعل مع الأحداث، ويخوض غمارها بالعقل الناضج والتفكير الصائب، وينفعل نتيجة الظلم الذي أصاب أهل الرابعة وهم يشيعون جنازة قتيل العراق، ثم نراه وهو يفضي بداخله إلى زوجته عما يلاقيه من عنت الإدارة والناس، ويعلل لأسباب قراره بالاستقالة...الخ.. ومع ذلك فقد رأيناه لا يتورع عن استخدام القسوة عند اللزوم حتى لا تفلت الأمور، كما سبقت الإشارة.

إن العمدة بصفة عامة يبدو في روايات الكيلاني شخصية ذات أهمية، لأنه عادة ـ باستثناء عمدة كفر الربايعة ـ وكيل للإدارة في ممارسة القمع.

وتأتي شخصية «شيخ الخفراء» مكملة لشخصية العمدة، بل هي جزء منها، ومثال ذلك شخصية «عتيق» شيخ الخفراء، الذي قام بإحراق بيت عبد المتجلي من قبل المافيا المتحكمة في السوق، انتقاماً من أم صابرين. وشيخ الخفراء بصفة عامة، يعدّ يداً غليظة في جسم العمدة تنفذ إرادته، وتلبي أوامره، وإذا تباطأت أو انحرفت فالويل لها! ويبدو أن الكاتب جعل من شخصية «عتيق» رمزاً يشير إلى تسخير المافيا المتحكمة في السوق والسياسة، رجال الإدارة لحمايتها، وتنفيذ عملياتها الانتقامية ممن تغضب عليهم، في مقابل تخليها عن دورها الأصلي في حماية الأمن القومي الداخلي.

أما شخصية الضابط، فهي سلبية بصفة عامة، ومرسومة من الخارج، أي جاهزة، ولا يستطيع القارئ أن يعرف ما يدور بداخلها، مع أن هناك نماذج من الضباط تزخر بالعاطفة الإنسانية حتى لو استجابت لما يُفرض عليها، إن الصورة العامة للضابط في الروايات الأربع تفيض بالبشاعة والقبح، فضابط النقطة في القرية يأخذ الرشوة من تجار المخدرات ليتستر عليهم، وله حق معلوم عند التجار وأصحاب الحاجات ولا تسلم تصرفاته من الظلم والفساد، وتشتريه «أم صابرين» بالهدايا.

أما رجل الأمن، فهو الجلاد الذي يرغم ضحيته على الاعتراف بعد التعذيب الوحشي الذي لا يقره دين ولا عرف ولا قانون، ومواصفاته : طاعة الأوامر، وعليه أن يكون ذا خيال واسع وقدرة على الابداع، شأنه في ذلك شأن الفنان الموهوب، فإذا لم تكن هناك قضية فعليه أن يخترعها وإذا كانت صغيرة فواجبه أن يبرزها في ثوب من الخطورة والإثارة، والهدف من ذلك كله شغل الرأي العام بقضية لها وزن وأبعاد، وبثّ الرعب في قلوب الذين يفكرون في المعارضة أو الانقضاض على السلطة!(١).

وإذا كان رجل الأمن في الروايات رمزاً للفساد والقهر، فإن رجل السلطة التنفيذية لا يقل إفساداً وقهراً وأوضح النماذج له شخصية «أحمد علام» رئيس المجلس القروي بقرية «الربايعة»، فهو منحرف، مستغل للسلطة، يأخذ الرشوة، لا يحل مشكلة إلا إذا تقاضى الثمن، ثم هو بعد ذلك يجيد فن الإنشاء والتزييف والنفاق «إنّ ما يهمنا أولاً هو أمن البلد وتلاحم الحزب مع الجماهير، وأخوف ما أخافه أن يكون وراء ما يحدث الآن تدبير خبيث من المتطرفين والإرهابيين (تعليقاً على موضوع إخراج زكاة العنب). وقضية الزكاة حضرات الأعضاء مسألة شخصية(!!) بحتة، وعلى كل فلاح أن يختار الفتوى التي تروق له (!!)، وياويل من يعبث بأمن البلد»(٢).

وفي الوقت الذي ينفعل فيه الحاج عبد الشافي عمدة الربايعة نتيجة لمداهمة قوات الأمن لجنازة قتيل العراق ويحتج، فإن «أحمد علام» يؤيد إجراءات العنف التي اتخذتها الحكومة ويدعو أعضاء المجلس إلى الانتشار بين الناس، وتجميع الأخبار عنهم أولاً بأول (جستابو!)، والإبلاغ عن أي معارض للحكومة بوصفه إرهابياً يجب القضاء عليه، كما يؤيد موقف الحكومة (المتخاذل) في مسألة القتلى المصريين بالعراق، والقبض على أهالي البلد ومنهم أبو المجد شاهين ومحمد حسب الله.

ويعلق على عنف السلطة ضد الناس في الجنازة عند الاجتماع الدوري للمجلس قائلاً :

---

(١) ملكة العنب ، ٥٥.

(٢) السابق، ١٥.

« ـ بلد لا تمشي إلا بضرب الحذاء.

فيرد عليه أحد الأنصار :

ـ صدقت ورب الكعبة »[1].

وعلى نهج شخصية أحمد علام، تأتي شخصية النائب في المجلس التشريعي، وهي شخصية باحثة عن المصلحة الذاتية (لا الشعبية)، وتستغل النيابة في الكسب غير المشروع، وتقدم لنا رواية «ملكة العنب» شخصية المحامية «سعاد الدباح» النائبة عن الدائرة أو عضو مجلس الشعب مثالا جيداً كان أبوها أكبر جزار في المدينة، ويحسن التفاهم بالسكين، وقيل عنها إنها «واصلة» إلى أبعد مدى، ولها علاقة وطيدة بالكبار، ويروون عنها أنها تُدخل الطالب كلية الشرطة أو الكلية الحربية نظير عشرة آلاف جنيه، وأنها استطاعت بنفوذها إنقاذ عدد من تجار المخدرات الذين قبض عليهم متلبسين، لا ببراعتها في الدفاع عن النفس، ولكن بأساليب وحيل لاتمت إلى ذلك بصلة، وأنها استطاعت أن تنقذ فتاة عابثة من المحاكمة بعد أن دهست بسيارتها شابين بريئين ماتا على الفور..[2].

وقد لجأت إليها «براعم» لتنقذ المعتقلين وتخرجهم من السجن، وقد فعلت بعد أن دفعت إليها مبلغاً ضخماً من المال، وذهبت إلى القرية مع المفرج عنهم في موكب مهيب!.

ولا شك أن هذه الشخصية الوصولية المرتشية تتسق مع الوضع العام الذي يحارب التدين والمتدينين، ويضعهم في خانة «التطرف والإرهاب»، وتجد هذه الشخصية وأمثالها مجالاً رحباً للنمو والانتشار في كافة المجالات، طالما كانت على ولائها للحكومة.. أما إذا انحرفت قيد شعره، فإن التنكيل يكون من نصيبها، وهو ما حدث مع عبد السميع بك الطناحي «نائب الدائرة الذي يدعي أنه مستقل، وقد أيده الناس كراهية في حزب الحكومة وتصرفاته الفاضحة وضيقا بعجز الأحزاب السياسية عن

---

(١) نفسه، ٥٣.

(٢) ملكة العنب، ٨٦، ٨٧.

القيام بواجباتها.. فقد جاء إلى الربايعة بسيارته المرسيدس ونظارته السوداء عندما علم بما جرى في جنازة قتيل العراق، وعقد اجتماعاً في المسجد ليشجب سياسة القمع، واستنكار تصرفات العسكر، وكانت النتيجة أن جرّه ضابط إلى خارج المسجد في استهتار واحتقار، ولم تشفع له حصانته البرلمانية، بل كال له الصفعات والركلات، والعسكر يفعلون مثلما يفعل ضابطهم!.

وهكذا يبدو رجال الإدارة بصفة عامة، في صورة غير طيبة، بل شريرة في أحيان كثيرة، تسعى إلى تحقيق مصالحها الخاصة على حساب القيم والأخلاق والناس، ولعل الكاتب أراد بتقديمها مسطحة أو من الخارج، أن يقول لنا إنها نماذج سائدة ومنتشرة بكثرة، بحيث لا تحتاج إلى استبطان أو حفر داخلي.

المجموعة الرابعة [شخصيات ثانوية]:

وتضم هذه المجموعة عدداً من الشخصيات الثانوية التي لعبت دوراً مهماً في توضيح القصة، وكان وجودها ضرورياً في بناء الروايات مع قصر دورها أو تواضعه، ذلك أنها أثرت في الأحداث ومجرياتها، وألقت بأضوائها الكاشفة بصورة وأخرى على الشخصيات الرئيسية(١).

وأبرز الشخصيات الثانوية شخصية الحاج «يونس عبده»، وهو عامل التليفون في دوار العمدة، وهو غريب مثير يجمع بين الصلاح والطلاح، والصدق والكذب، والوفاء والخيانة. إنه شخصية متناقضة تجمع الأضداد، ويسميه بعض الناس في القرية إبليس، والبعض الآخر يرى أنه داهية وذكي.. فهو من ناحية أحد الدراويش المرموقين، وحسن الصوت إلى حدّ ما، ويترنّم بالمدائح النبوية التي يتطوح الذاكرون على إيقاعاتها، ويهيمون في دنيا الوله والعشق.. وهو من ناحية أخرى. كما تردد الشائعات ـ يشتغل مرشداً أو مخبراً للمباحث، ويتقاضى على ذلك أجراً إضافياً، وهو على استعداد لأن يشي بأي إنسان حتى لوكان من أعز أصدقائه، ويعزى إلى يونس تلك الهجمات البوليسية على أوكار السوق السوداء والحشاشين وحائزي

---

(١) انظر: فن القصة، ٤٦.

السلاح، بل قيل أيضاً إنه أرسل شكوى من مجهول يدعي فيها أن العمدة له حصة من التموين يأخذها ظلماً وعدواناً من أقوات المساكين .. مع أن العمدة من أبناء عمومته!.

والحادثة المؤكدة أنه خدع «قطيفة» زوج «أبو الفتوح الشرقاوي»، واستغل لهفتها من أجل إخراج زوجها من السجن، وجعلها تبيع أرضها دون أن تقبض ثمنها، زاعماً أن ثمن الأرض سيذهب إلى المحامي الكبير الذي وكله للدفاع عن «أبو الفتوح»!.

وكان «يونس عبده» من الأذكياء الذين يعرفون كيف يشغلون الناس، ويسربون الشائعات ليحقق أغراضه الخاصة أو يشغل الناس بعيداً عنه، وقد أعلن مثلاً رأيه من الحادثة التي اتهم فيها أبو الفتوح الشرقاوي فقال : يبدو أن الجريمة وراءها دوافع سياسية»[1]. وكانت نتيجة هذا الرأي أن ثار اللغويّون المثقفون من أبناء القرية والأزهريون خاصة، وسماسرة الانتخابات والأحزاب السياسية..

وهكذا تبدو شخصية «يونس عبده» مثيرة وحية ومحركة للأحداث في الرواية حتى انتهى بها المطاف إلى السجن.. بيد أن الكاتب لم يقدم لنا تعليلاً أو تفسيراً لتناقض شخصية «يونس عبده»، وترك لنا التخمين والحدس.. فهل كانت معرفته المحدودة بالقراءة والكتابة، ثم طموحه للغنى والثراء، والتطلع إلى أعلى، ورغبته أن يكون محط أنظار الجميع ومثار اهتمامهم بحكم أنه حلقة الوصل بين الإدارة والعمدة أو مكمن الأسرار بينهما، من وراء تناقضاته؟.

الإجابة ممكنة، ولكننا كنا نطمح أن تكون من خلال الرواية.

ومن الشخصيات الثانونية الحية في الروايات، شخصية «الراعي كشكل» في رواية «ملكة العنب»، وهو حشاش مخضرم، يعلق على الأحداث بمفهوم الحشاشين، ويطلق التخدير عقال لسانه فيقول كلاماً لا يقوله العقلاء الذين يحذرون العواقب، ويأتي كلامه شبيهاً بالحكم الممتزجة بالسخرية، ويستطيع أن يختزل أعقد القضايا التي تشغل المجتمع في عبارات قصيرة أو جمل مكثفة تثير الابتسام وتذكر بالقهر في آن

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٢٩.

واحد. ولعلنا نستطيع أن نستتشف شيئاً من ذلك في الحوار التالي في إحدى الجلسات التي شهدها الراعي كشكل :

«.. قال أحد المساطيل للراعي كشكل:

– إذن فأنت قتلت السلاموني، أو على الأقل تعرف من قتله..

قال الراعي وهو ينحي النرجيلة بعيداً :

– بالتأكيد أعرف..

صوبوا إليه عيونهم وقالوا في صوت واحد :

– من !

– الشيخ محمد حسب الله..

– مستحيل .

– ولم لا ؟ إنه يطبق شرع الله..

– وهل يقتل من يسرق بضعة كيلو جرامات من العنب؟..

– لا تسألوني .. اسألوا الشيخ.. وبالنسبة لي فأنا أؤيد تحديد النسل.. وإلا قطعت أمريكا عنا المعونات..»[1].

ويستدعي الكاتب شخصية الحشاش كشكل، لتكشف عن جوانب سلبية في أجهزة الأمن والنظام الحكومي، حيث يستجيب لما يُطلب منه من جانب الضابط المحقق، وهو في هذه الاستجابة يقول لنا بطريقة غير مباشرة : إن الظلم الذي تمارسه السلطة لا مردّ له، وأنه لا قبل للناس بمواجهته، وأنه من الأولى الاعتراف ـ كذباً بالطبع ـ أن الحكومة دائماً على حق، وأن تلفيق القضايا والتهم للأبرياء حق ! إنه في كل الأحوال يدين السلطة بطريقة معكوسة حتى لو بدت هذه الطريقة نوعاً من الهزل، كما حدث عند التحقيق معه.

---

(١) ملكة العنب، ٣١.

وإذا كان التحشيش يظهر الراعي كشكل في حالة من عدم المبالاة الساخرة، فإن الكاتب صنع له جوانب مأساوية كي تكتمل صورته الحية، فنراه يعشق زوجة «مصطفى السلاموني» الثالثة، يتآمر معها لقتله، وينتهي به المطاف إلى المحكمة والسجن!.

لقد استدعى الكاتب مجموعة من الحشاشين في رواية «اعترافات عبد المتجلي»، وقد أطلعنا على لغتهم وأفكارهم، وهي لا تختلف كثيراً عن لغة الراعي كشكل وأفكاره، فلماذا الإلحاح على استحضار الحشاشين في أكثر من رواية؟ هل يريد الكاتب أن يخبرنا أن فريقاً من الشعب ينسحب إلى عالم المخدرات ليغيب عن المعاناة والعذاب والضيق والآلام التي تغشى حياة المجتمع؟ أم يريد أن يُجري على ألسنة الحشاشين السلبيات التي تعشش في أركان الوطن من خلال جو ساخر؟ أم يريد القول إن الغياب عن الوعي والفساد الاجتماعي صنوان مقترنان؟ لعله يريد هذا كله، ولكنه من وجهة نظري أراد أن يثري حيوية النص الروائي بتلك النماذج التي تخلط الجد بالهزل، والسخرية بالابتسام، وتقول مالا يقوله العقلاء..

ولعله يلحق بهذه الطائفة من شخصيات الحشاشين، شخصية الأفاقين، وإن كانت غير واضحة الوضوح الفني الكافي، وإن كانت تشكل في حد ذاتها معْلماً مهماً في السياق الروائي، ولعل شخصية «عوض العوضي» في «ملكة العنب» مثال على ذلك..ويمكن أن نجد له مقابلاً في بعض روايات نجيب الكيلاني الأخرى، ولعله يتماثل في سلوكه مع شخصية «أبو الفتوح الشرقاوي» قبل الحادثة إلى حدٍ ما. وبصفة عامة يمكن القول إن شخصية الأفاق شخصية نمطية في الرواية العربية، وتمتد جذورها إلى ما قبل عقود، لعلها تبدأ بشخصية «حمادة الأصفر» في رواية «أنا الشعب» كتبها «محمد فريد أبو حديد». ولكن يلاحظ أن شخصية الأفاق عند نجيب الكيلاني تملك فطرة خيّرة مع ما يشوب صورتها الخارجية من مظاهر شريرة، وكأنه يريد أن يقول إنها لم تجنح إلى الشر بطبيعتها، ولكن الواقع والظروف من وراء ذلك.

بيد أن هناك شخصيات شريرة بطبيعتها مناظرة لشخصية الأفاق، محترفة للشرّ

ومغموسة فيه، وهناك شخصية قدمها الكاتب في رواية «امرأة عبد المتجلي» تمثل هذا النمط تمثيلاً جيداً، وهي شخصية «الورداني ربيع» من «كفر الصقور»، وهو سمسار أراض، وتاجر مخدرات ومواشٍ، ومن رجال السياسة المحليين[1]، ويستأجر من قبل المافيا التي تحكم السوق للقيام بالعمليات القذرة، وقد أغوى شيخ الخفراء «عتيق» لإحراق بيت «عبد المتجلي» نظير ألف جنيه.

إن الشخصيات الثانوية تلعب دوراً مهماً في الغالب لكشف جوانب مبهمة من الشخصيات الرئيسية أو الأحداث، وكثير منها لا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه، لأنه يتمتع بالصدق الفني والحيوية القصصية..

وبصفة عامة يمكن القول إن الكاتب أعطى لشخوصه لمسة الحياة الفنية، سواء كانت شخوصاً رئيسية أو ثانوية.. وسواء كانت نامية Round تتكشف تدريجياً وتتطور بتطور الحوداث أو مسطحة Flat تحمل فكرة واحدة أو صفة لا تتغير على مدى الرواية.

ولأنها شخصيات إنسانية حيّة، فقد حملت بذور الفطرة الإنسانية في حالات توهجها البشري وانطفائها الطبيعي.. ولذا رأينا شخصيات خيرة تضعف أحياناً أو يصيبها الضعف والوهن أمام قسوة الواقع والظروف، وشخصيات غير خيرة، وتتحول إلى شخصيات خيرة، وتبعث ما في داخلها من فطرة سوية لتلحق بركب الأخيار.. أما الذين فسدت ضمائرهم، وماتت قلوبهم، فإنهم يظلون على منهجهم حتى يلحقهم الطوفان.

لا شك أن خبرة نجيب الكيلاني أو عمره الطويل في الكتابة الروائية، كان من وراء تلك الشخصيات التي استوت ناضجة في الغالب من خلال واقعيته الإسلامية.

---

(١) ملكة العنب، ٣١.

الحبكة الفنية

لا ريب أن الخبرة الطويلة لنجيب الكيلاني في ميدان الكتابة القصصية قد أعطته قدرة على بناء قصصه ورواياته بصورة جيدة ومحكمة ومتماسكة.. لذا تجد المادة القصصية في رواياته تجمعها وحدة منسجمة مترابطة ويستطيع القارئ ـ على حد قول بعض الباحثين ـ أن يتتبعها بشوق ونهم دون أن يعاني صعوبة ما في تفهمها ورصد أحداثها[1].

وروايـات نجيب الكيلاني من النوع الذي يطلـق عليـه القصـة التمثيليـة Dramatic Novel حيث يكون التفاعل على أتمه بين الحوادث والشخصيات، فالحادثة التي تجترحها الشخصية، سرعان ما تصبح عاملاً مؤثراً في القصة، قد يمس الشخصية نفسها مساً رفيقاً ليناً، أو عنيفاً عاتياً...[2].

لذا فإن روايات نجيب الكيلاني تحقق التفاعل بين بناء الشخصيات وبناء الحوادث في إطار متماسك ومتنام، بحيث تترابط الحوادث بالشخصيات ... ترابطاً طردياً، يجعل نمو كل منهما مرتبطاً بالآخر ارتباطاً وثيقاً.

إن نمو الحوادث يتسق مع التتابع الزمني، قليلة هي الحوادث التي تبدو معقدة، أو تتكشف من خلال سياق متقاطع (رأسياً وافقياً).. إنها أي الحوادث تسير في اتجاه أفقي بصفة عامة، وهو ما يجعلها بصورة ما أقرب إلى الحوادث البسيطة، ويعد هذا ميزة من ميزات العمل الروائي، الذي لا يلجأ إلى الحوادث المعقدة أو الغريبة أو المثيرة.. ولكنه يقدم واقعاً يومياً أو اجتماعياً مألوفاً يعيشه الناس، ويمرون به، ويتفاعلون معه سلباً أو إيجاباً، وتكمن براعة الكاتب في تقديمه بصورة مشوقة تحفز على المتابعة والتأمل والتفكير وتكوين موقف معين تجاه الواقع وحوادثه، أو على حد تعبير بعض النقاد «إن الروائي يحتاج إلى استغراق مشاعرنا الذاتية معه قبل أن يكون في مقدوره

---

(١) محمد يوسف نجم، فن القصة، ٣٤.

(٢) السابق ، ٤٩.

تحقيق أفضل نتائجه الدرامية والخيالية»[1].

إن الكاتب ينتخب مادته الروائية من الحوادث التي يحفل بها الواقع، ويقنعنا بإمكان حدوثها، ويضعها في إطار منظم ليفسر بها الحياة من حولنا، ولا ريب أن نجيب الكيلاني قد فعل ذلك في رواياته الأربع، وفقاً لمقولة «جورج مور» عن «فن كتابة القصة» الذي يعدّه تتابعاً إيقاعياً منظماً للحوادث في أسلوب إيقاعي منظم للعبارات[2].

ويتجلى التتابع الإيقاعي المنظم للحوادث والأسلوب الإيقاعي المنظم للعبارات في بناء الروايات بطريقة فنية جذابة، إذا وقفنا عند كل رواية على حدة، مع الأخذ في الحسبان أن روايتي «اعترافات عبد المتجلي» و«امرأة عبد المتجلي» يعدان بناء موحداً، جزؤه الأول الرواية الأولى، وجزؤه الثاني الرواية الثانية.

ويلاحظ بصفة عامة أن البناء الروائي يقوم على ما يسمى بالحبكة المركبة التي تبنى على أكثر من حكاية، ومع بساطة الحوادث، فإننا في كل رواية نطالع أكثر من حكاية تمضي بالتوازي مع الحكاية الأساس أو تتفرع عنها غالباً.

وتقوم رواية «اعترافات عبد المتجلي» على تكوين شخصية الشاب «عبد المتجلي القصاص» الموظف الصغير بمجلس القرية ويحمل دبلوماً متوسطاً في التجارة، ولكنه مثقف يقرأ ويتعلم ويفكر، تذهله حادثة سرقة الونش العملاق من أكبر ميادين القاهرة وسط الزحام والناس ورجال الأمن، ولا تستطيع الأجهزة المعنية العثور عليه، فيقرر عبد المتجلي أن يحصل على إجازة من عمله ويذهب إلى القاهرة ليتابع قصة الونش ويبحث عنه بنفسه. وفي القاهرة يتكشف عالم جديد بالنسبة له، ويخوض عباب مآزق ومحن تنتهي به إلى السجن والتعذيب، ومن ثم يعود إلى قريته. وقد يبدو حدث البحث عن الونش غير مقنع بصورة ما، أو خيالياً في مفهوم البعض، وبخاصة بعد أن عمّ الإحباط المجتمع بأسره، وسيطر عدم المبالاة على الناس، وانشغالهم بالبحث عن توفير رغيف الخبز أو أساسيات الحياة، وبعد أن تكفلت الدولة بإدارة كل المرافق، وتركت للناس شؤونهم الشخصية فقط، بل إنها تتدخل في هذه الشؤون

---

(١) روجر هيكلي وصلاح رزق، في قراءة الرواية، ١٣.

(٢) انظر : طه محمود طه، القصة في الأدب الإنجليزي، ١٣٣.

أحياناً (تحديد النسل مثلاً).

بيد أن نموذج عبد المتجلي موجود، وقائم داخل المجتمع مع ظروف الإحباط وعدم المبالاة والانشغال بالذات، وإن لم يعبر عن نفسه تعبيراً إيجابياً كما فعل عبد المتجلي، فالكثيرون يحلمون بالتغيير، ويتحرك في أحشائهم الرفض للفساد والقهر والعفن وكل ما هو شأنه.. صحيح أن القلة هي التي تبادر إلى الفعل أو التعبير العملي عن الفكر، ولكن الأغلبية مع ظروفها الصعبة تحلم وترفض وإن كان ذلك يتم في صمت نتيجة للخوف أو أسباب أخرى.. ومن ثم، فإن نموذج عبد المتجلي ممكن التحقق والالتقاء به في المجتمع بصورة وأخرى.

إن تكوين عبد المتجلي جعله في السابق واللاحق يرفض أشياء فاسدة وغير طيبة، فقد تصدى مثلاً لعملية تجريف الأرض الزراعية، ومع أنه ذاق علقة ساخنة في قسم الشرطة، إلا إن نجح في إيقاف العملية ومنع تجريف الأرض في قريته، وانتقل تجار الطين إلى قرية أخرى.

وهكذا يكون موقف عبد المتجلي في بحثه عن الونش العملاق عملاً طبيعياً وحدثاً مقبولاً، والمهم هنا أنه يجد القاهرة مدينة بلا قلب، الناس فيها يلهثون، ولا أحد يهتم بأحد، فيرى العناء بعينيه، ويصرّ على مواصلة عملية البحث بلا جدوى، ولكنه يتعرف على جوانب سلبية فاسدة في حياة الناس : العصابات والحشاشين والمادة التي تحكم كل شيء حتى قضاء الحاجة أصبح له ثمن» ومع ذلك يلتقي بعناصر طيبة تساعده إلى حدٍ ما بعد نفاد ما معه، فخادم المسجد يؤويه على السطح، وأم صابرين التي تعطف عليه فيتزوجها، ويتعرف على شيخ الخلوة الذي يمنحه الحكمة.

ويستطيع عبد المتجلي بعد بحث، أن يتوصل إلى أن الونش قد تم تقطيعه في إحدى الورش الميكانيكية، وبيعه إلى تجار في الصعيد، فيستعد للسفر إلى هناك، وهنا تتصاعد الأحداث وتتلاحق، بعد أن يتابعه أحدُ المخبرين ويتقرب إليه، فينطلق لسان عبد المتجلي بالحديث عن الفساد العام، فيقوده المخبر إلى «لا ظوغلي»، ويسأله عبد المتجلي :

«– أين نحن ؟؟

- بين فكيّ الأسد..»[1].

ويبدأ الاستجواب والتعذيب الذي يكشف عن توتر ورغبة قاهرة في القمع، وهو ما يدفع الضابط المستجوب إلى أن يعدّ موضوع الونش «مجرد ستار يختفي وراءه عبد المتجلي الحقيقي.. عبد المتجلي المتطرف ذو الوجه الإرهابي القبيح، الذي ينقل الرسائل والأوامر بين الفصائل الإسلامية المتطرفة في المحافظات والقاهرة وأسيوط..»[2].

وفي محنة التعذيب يكتشف عبد المتجلي عالماً آخر أصم لا يسمع صراخه وتأوهاته، حيث السياط والعصي والأيدي والألسنة تعزف مقطوعة دامية رهيبةً تنداح موجاتها الوحشية في روحه وجسده وعقله، وفي لمحة خاطفة عرف معنى القهر الحقيقي، وفهم لأول مرة في حياته معنى الكفر، وبدأ له أن الانتماء الحقيقي، والصدق الإنساني يعني الموت في كثير من الأحيان..»[3].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد الأثر إلى الناس في القرية حيث صاروا يفرّون من بيته ومنه كما يفرون من الوباء، وتوقفت المجاملات الإنسانية بالنسبة لأمه وأخته، وقالت الأم:

«لقد جرّ على نفسه المصائب.. لكن لابد أن نوكل له أحد المحامين.. ولا مانع أن نبيع الأرض لنشتري رجلنا»[4].

وهكذا تتوالى أحداث الرواية حتى يتم الإفراج عنه، ويعود مع زوجه إلى القرية ليبدأ مرحلة جديدة.

في خلال هذه الأحداث، تظهر حكايات أخرى تصب غالباً في إحكام البناء الروائي، وتشويق القارئ للمتابعة، وتخدم في الوقت نفسه القصة الأصلية أو الإنسانية فهناك قصة تجريف الأرض الزراعية التي سبقت الإشارة إليها، وقصة خطوبة

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٨٩.

(٢) السابق، ٩٨/٩٩.

(٣) السابق أيضاً، ١٠٠/١٠١.

(٤) نفسه، ١٠٢

أخت عبد المتجلي لأحد شبان القرية، وحكاية الحشاشين، وحكاية أم صابرين وزوجها السابق، ومواقف عبد المتجلي مع العمدة وإمام المسجد...الخ، كلها تبرز الحدث الأساسي وتضيئه، وتحقق التشويق الذي تسعى إليه الرواية من أجل بلورة شخصية بطل الرواية «عبد المتجلي القصاص» في كفاحه للبحث عن الونش، أو بمعنى آخر الحديث عن سلبيات المجتمع ومآسي القهر!.

أما الرواية الثانية، أو الجزء الثاني من الرواية، «امرأة عبد المتجلي»، فإن البناء الروائي تتصاعد أحداثه، بل يبدو أكثر دراماتيكية، لطبيعة ما جرى فيه لعبد المتجلي، وإن حاول الكاتب أن يوهمنا أن الموضوع يدور حول امرأته «أم صابرين» بالدرجة الأولى.

تقدم لنا الرواية امرأة عبد المتجلي، نقيضاً لزوجها، ففي الوقت الذي يشاقق فيه عبد المتجلي المجتمع بسبب الفساد والقهر، تحاول «أم صابرين» أن تتناغم معه، وتتعامل معه بسلاح المادة، بل تسيطر على من بيدهم زمام الأمور والسلطة، في القرية والمدينة، عن طريق المال، وتعمل على مواجهة ذئاب التجارة والفساد بأساليبهم ومنطقهم.. وإن كانت تقع في النهاية مضرجة بدمائها ضحية للمجتمع الفاسد وأسلوبه!.

لقد كان زواجها من عبد المتجلي، وسيلة من وسائل التصاعد الدرامي في الرواية، حيث انتشرت الشائعات في القرية حول شخصيتها، وكتب العمدة تقريراً سرياً وضعه في غلاف حكومي أصفر مختوماً بالشمع الأحمر وبعث به إلى جهات الأمن مما ترتب عليه اعتقال عبد المتجلي وخوض تجربة جديدة وقاسية ـ وعندما عادت إلى القرية، وبدأت الإقامة حيث تبدأ عملياً الرواية الثانية، أرادت أن تحسن دخل زوجها والأسرة، ولأنها كانت تبيع في كشك بالميدان الذي سُرق منه الونش بمدينة القاهرة؛ فإن مهارتها في التجارة وذكاءها الفطري دفعاها إلى التفكير في مواصلة تجارة داخل بيتها أولاً، ثم التوسع شيئاً فشيئاً حتى صار لها متجر كبير يحمل اسم «أم صابرين» وصارت من كبار رجال الأعمال في القرية، بل المدينة، مما عرضها لحنق الخصوم أو المنافسين وكان أول رد فعل لهم هو إحراق بيت عبد المتجلي، ويترتب على ذلك الدخول في صراع مع المنافسين من ناحية، وصراع مع زوجها من ناحية أخرى،

وتعتمد في صراعها المزدوج على المال الذي يخضع الجميع :

«..لا أستطيع أن أتعامل بعملة غير عملة العصر.. الجنيه المصري ينخفض، والدولار يرتفع، لكنك تستطيع أن تشتري النفوس بأي منهما.. وأنا والحمد لله أصبح لدي رصيد من العملة المحلية والأجنبية، لا يجب أن نتصور أن أمامنا عقبة برغم الحريق المدمر الذي أصاب مقرنا.. والبادي أظلم.. والحديد بالحديد..».

ويعلق عبد المتجلي على منهج زوجته برؤيته المناقضة :

«– ذلك طريق الندامة..

– بل السلامة.

– هذه المرة فقدنا بيتاً وأثاثاً وبهائم، أما المرة القادمة، فقد يفقد أحدنا حياته، وتلك خسارة فادحة لن يعوضها شيء..»[1].

وكأن عبد المتجلي، كان يتوقع النهاية التي دفعت أم صابرين حياتها ثمناً لها، وكأن المجتمع كله سيدفع حياته الآمنة المطمئنة ثمناً لمنطق العصر أو عملة العصر!.

ومع مالمسه عبد المتجلي من تغير في مستوى حياته، وإحساسه بالثراء والغنى، وعيشه عيش الرخاء والترف، فقد كان إحساسه الداخلي بالتناقض مع ما تفعله زوجه سبباً لتوتر دائم في علاقاتهما انتهى بالطلاق في لحظة غضب عارمة.

لقد دفع الرخاء عبد المتجلي إلى دخول الانتخابات اعتماداً على حب الناس له قديماً، وتصور أنه سيفوز فوزاً ساحقاً على منافسيه، ولكن النتيجة كانت هزيمة ساحقة، فأصيب بصدمة عنيفة، وتصور أن الحكومة هي السبب، ولم يدرك أن تغيره أو قبوله بالتغير هو الذي أسقطه، وقد واجهه شيخ الجامع بذلك:

«زوجك أقامت امبراطورية للشر. إن السوق السوداء طريق إلى جهنم.. والاحتكار ملعون في الكتاب والسنة.. والعمل على رفع الأسعار إجحاف بحق الفقراء.. وشعبنا مسكين ـ لقد سقطك الشعب يا عبد المتجلي»[2].

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٦٩.

(٢) امرأة عبد المتجلي، ٨٢.

ومع أن المياه عادت إلى مجاريها مرة أخرى بين عبد المتجلي وامرأته إلا إنه عاش التمزق بين ما آمن به من قيم ومثل ترفض الفساد والظلم والاستغلال والرشوة والتعامل مع المفسدين بمعنى تقبلهم والتناغم معهم، وما تقوم به زوجته من خلال امبراطوريتها التي تتوسع باستمرار.. لقد بنت بيتاً حديثاً بعد الحريق الذي أصاب منزلهم المتواضع، وواصلت مسيرتها الظافرة في التجارة، والبحث عن الجناة الذين أحرقوا البيت وقد توصلت إليهم وتعاملت معهم بما يقتضيه الموقف، ولكن عبد المتجلي كان يقارن دائماً بين حياتين :

«حياته الأولى الهادئة الفقيرة المتواضعة كانت أفضل كثيراً مما يعانيه اليوم، بل إن وقوعه بين براثن رجال الأمن السياسي، وهو يبحث عن الونش، كانت أخف وطأة مما هو عليه الآن.. القناعة والبساطة حققت له الأمن والسلام، وعندما انتعش اقتصادياً واجتماعياً بدأت تتوافد عليه الأحداث القاتلة والهموم والمخاوف»[1].. وكثيراً ما يعلن عن إحباطه وأساه، وإحساسه بالإخفاق «لا الونش عاد، ولا أيام الصفاء دامت ولا الدنيا تغيرت إلى الأفضل»[2].. بل إنه أصيب فجأة بضغط الدم، نتيجة التوتر والاضطراب اللذين يعيشها.

ومن الطريف أنه في هذه المرحلة يعلن عن رغبته في تكوين حزب يسميه «حزب الصابرين» لأن الصبر ألصق صفة بشعبنا منذ آلاف السنين، أو ينشغل بتكوين فرقة مسرحية يحاول من خلالها إصلاح المجتمع ولكنه لا يحقق نجاحاً يذكر، في الوقت الذي تستمر فيه المسيرة التجارية الناجحة لزوجته.

تكشف الأحداث عن حجم المافيا التي تتحكم في التجارة والسلطة، وتفرض شروطها على الجميع، ومن يخالف يدفع الثمن غالياً، وهو حياته في الغالب، ثم إنها ـ أي المافيا ـ تمارس الانحلال والفساد في أبشع صورهما.

ولأن امرأة عبد المتجلي، خرجت على المافيا إلى حد ما، فقد كان القتل من نصيبها، وقد اتهم عبد المتجلي النظام ـ يقصد الطوارئ ـ بقتلها، ورأى أن موتها

(١) السابق، ٦٧.

(٢) نفسه،، ٣٤.

يميت الحب أيضاً، وأن دمها سوف يشعل الثورة التي لن تبقي ولن تذر، ويعدّ نفسه منذ موتها رجلاً متطرفاً، ولكن العمدة يعده ملتاثاً ويطلب إحالته إلى أخصائي أمراض عقلية حماية له ولأسرته.. ولا يزال التحقيق مستمراً! لأن المعركة بين الخير والشر لم تحسم بعد!.

هكذا تنتهي رواية «امرأة عبد المتجلي» أو الجزء الثاني من «اعترافات عبد المتجلي»، ويبدو تتابع الأحداث من خلال شخصية أم صابرين وزوجها عبد المتجلي، متدفقاً ومثيراً، ولعل هذا كان من وراء ترقيم فصول الروايتين معاً، دون أن يضع لهما الكاتب عناوين.

لقد أتاح السرد عن طريق ضمير الغائب فرصة كبيرة للمؤلف كي يحشد تفاصيل الأحداث في تتابع منظم يثير أشواقنا لمتابعته، والتعرف على نتائج الأحداث ومصائر الشخوص دون أن نشعر بالملل أو السأم، وهو الشيء ذاته الذي لمسناه في روايته «قضية أبو الفتوح الشرقاوي» حيث حشد كثيراً من التفاصيل وراء الحدث الأكبر في الرواية، وهو سقوط سيارة في الماء.

إنه حدث عادي، ولكن حدوثه في الريف في ذلك الزمان البعيد، جعله غير عادي، يستحوذ على اهتمام الناس، ويثير فضولهم، وبخاصة أن الحادث ارتبط بفضيحة خلقية دارت حول امرأة من الطبقة العليا في المجتمع، قيل إنها هربت من زوجها، فسقطت بها السيارة مع عشيقها في مياه الترعة أو البحر العباس كما يسميه الأهالي.

وقد أعطى للحادث بعداً أكبر، ادعاء أحد الفلاحين (أبو الفتوح الشرقاوي) إنه عليم بتفاصيله، ورافق ذلك الادعاء شائعات تدور حول جثث الغرقى التي طفت على سطح الماء بجوار الشاطئ، وتتحدث عن الضحايا ومن بينهم النساء الجميلات والأطفال زرق العيون والمشغولات الذهبية.

يتم القبض على «أبو الفتوح الشرقاوي» بعد أن وصلت أنباء ادعائه إلى الشرطة، وهناك يخضع للتحقيق، وتحت ضغط التعذيب يضطر إلى المزيد من الكذب كي يرضي سلطات التحقيق، مما أوقع الشرطة والنيابة في متاهة لا بداية لها ولا نهاية،

وكشف عن قصور الأداء الأمني، وهو ما تمثل في إصرار الشرطة على تقديم «متهم» ـ أي متهم ـ وليكن أبو الفتوح الشرقاوي، ثم إغلاق ملف القضية بأية وسيلة، ولو كانت مخالفة للحقيقة، فضلاً عن القبض على جميع المشتبه بهم ممن ذكرهم أبو الفتوح في أقواله، وفي مقدمتهم أنصار الحركة الإسلامية!.

ويتضح القصور الأمني العريق في المفارقة التي تجعل الشرطة تقدم متهماً للمحاكمة دون أن تعثر على الجثة موضوع الاتهام. لقد أفهم الضابط المحقق «أبو الفتوح» أنه لا يمكن معرفة إن كانت الجثة لقتيلة أو غريقة إلا بعْد التشريح بمعرفة الطبيب الشرعي .. «عندئذ قال أبو الفتوح :

– ولماذا لم يتم التشريح ؟؟.

قال الضابط وهو يرميه بنظرات متشككة متوعدة :

– لأننا لم نعثر على الجثة بعد ..

– كيف ؟ أنتم الحكومة..

– أنت الوحيد الذي اعترف بأنه رآها.

– ولماذا تهتمون بجثة لم تروها؟.

– ليس هذا من شأنك .. »[١].

وهذا القصور يتحول إلى مأزق حقيقي للشرطة فيما بعد، حيث يوضح طبيعة التفكير الأمني الذي يفكر في تقديم «متهم» وحسب، ولا يعنيه «الظلم أو العدل» ، الذي يعنيه إنجاز العمل وإغلاق الملف :

«قال أحد رجال المباحث المحنكين :

ماذا يكون موقفنا، إذا ظهرت عنايات هانم بعد ذلك ؟.

أجاب أحد زملائه!.

احتمال ضعيف.

---

(٣) قضية «أبو الفتوح الشرقاوي».

لكنه يظل قائماً، ويحمل تهديداً دائماً لنا.

عاد الزميل يقول في سخرية :

- إذا ظهرت نقتلها.

- لا تهرب من الحقيقة.

- أقول نقتلها.

- لن نفعل.

- ولم لا ؟ أنا وبعدي الطوفان، ثم إن زوجها الشريجي باشا قد لا يسره ذلك الظهور المحتمل، لأنه يحمل من ثناياه فضيحة أكبر...»[1].

وإذا كان القصور الأمني، ومأزق الشرطة يسهم في التصعيد الدرامي للبناء الروائي نحو الذروة، فإن الشائعات، وبخاصة التي تنشرها الصحف تقوم بدور كبير في هذا السياق، فقد استغلت الصحف الحادث، ونشرته في صفحة الحوادث دون أن يذكروا اسم «عنايات هانم» بالاسم، وأكثرت من الحديث عن قصة غرام وليال حرام وكؤوس وفسوق وفجور وأموال ومغامرات وألاعيب سياسية».

كما تخصصت إحدى شخصيات الرواية «يونس عبده» في إطلاق الشائعات التي أحدثت صدى عند الناس والسلطة معاً، فقد أشاع أن «عنايات هانم» هربت مع ضابط شاب من تلاميذ زوجها، وأنها تنكرت عند هروبها في زي فلاحه، وكان قد أشاع قبل ذلك أن «أبو الفتوح الشرقاوي» قد تعرف على الجثة وأنه شارك في الجريمة.. مثلما همس قبل ذلك أيضاً بأن شعبان عبد اللطيف قد كرر القول إنه مادامت الحكومة لا تريد إقامة شريعة الله، فعلى الشعب المسلم أن يتولى ذلك، ومن المرجح لدى المحققين أن شعبان هو الذي أفتى بقتل «عنايات هانم البحيري»، وأن «أبو الفتوح الشرقاوي» هو الجلاد الذي أقام «الحدّ» مقابل مئة جنيه، وهناك شاهد اعترف بأن أبو الفتوح فعل ذلك ليدخل الجنة، ويأخذ المائة جنيه مكافأة حلالاً! ويفسر ذلك، بأن شعبان على علاقة بالإخوان المسلمين، ويعرف قصة انحراف عنايات هانم منذ

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٦١.

زمان.. وكانت نتيجة شائعات يونس القبض على شعبان وآخرين!.

وهكذا تلعب الشائعات التي تجد صدى لدى الناس والمسؤولين دورها في تعميق الصراع الروائي والتقدم به إلى مستوى الإثارة الفنية...

ولكن المفاجأة التي أذهلت الجميع هي ظهور عنايات هانم في البنك لتصرف من رصيدها، وحاولت السلطات القبض عليها، ولكنها فرت مع الشخص الذي وصف بأنه عشيقها.. وهنا تتعقد الخيوط الروائية.. حيث هناك متهم يعترف بالقتل، وجثة، ومقبوض عليهم غير المتهم الرئيس، والشرطة في مأزق .. وهنا تتداخل مصالح وسياسات ورغبات، تتناولها الصحافة وخاصة الحزبية بالمتابعة والتعليق لتشتعل قضية أبو الفتوح، وتأخذ أبعاداً أوسع وأشمل. وترتفع الأصوات للمطالبة بالإفراج عن «أبو الفتوح»، ويتقدم الأستاذ حسن سليم، المحامي الشهير، من جماعة الإخوان بمذكرة للنائب العام من أجل الإفراج عنه.

كانت زوجة أبو الفتوح منذ قبض على زوجها، تسعى من أجل الإفراج عنه، فتتعرض لعملية احتيال وخداع من جانب «يونس عبده» عامل التليفون، الذي جعلها تبيع قطعة الأرض التي تملكها وأبو الفتوح، لتوكيل محام يدافع عن زوجها، فإذا بها تكتشف بعد حين، أن الأرض آلت إلى يونس، وأنه لم يوكل محامياً ولا غيره، ولم يدفع مليماً واحداً لقيطنة أو للمحامي المزعوم.

وبعد أن تدوخ بحثاً عن حلّ، تشير عليها إحدى الجارات أن تتوجه ليلاً إلى «الخروبي» الذي اشتهر بكتابة التعاويذ وشفاء المرضى، وفك أسر المأسورين، وزواج العوانس و«فك المربوطين» ولكنها لم ترتح إلى هذا الحل، إيماناً منها بأن الحكومة تبدو محصنة ضد السحر والجان، ولعلها مكونة أصلاً من أناس ينتسبون إلى دنيا العفاريت والشياطين»[1].

بيد أن «شعبان عبد اللطيف» وإخوانه يقومون من جانبهم بتبني قضية «أبو الفتوح الشرقاوي» من حيث توكيل المحامي والأخذ بيد الزوجة وأبنائها ومساعدتهم على مواجهة الظروف الصعبة..

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٤٣.

في غمرة قضية أبو الفتوح، تقدم الرواية قصة جانبية تبدو غير وثيقة بالبناء الروائي وتتعلق بسرقة جاموسة الشيخ المداح، حيث يأخذ الرجل موقفاً سلبياً «لعل من سرقوها في حاجة شديدة إليها»، كما يرفض تقديم بلاغ عن سرقتها.. ولكن الجاموسة تعود وحدها ذات صباح، وعدّ أهل القرية ذلك كرامة من كرامات الشيخ المداح، وانطلقت الزغاريد من كل مكان. وتمتم الشيخ عندما علم بعودة الجاموسة :

«المال الحلال لا يضيع .. اتركوها فإنها مأمورة ..»[1].

وتتلاحق الحوادث حين تستغل الصحف الحزبية الموضوع، وتعلن إحداها أنها ستنشر مذكرات «أبو الفتوح الشرقاوي»، التي ستطال أطرافاً مختلفة، وستكشف عن أسرار عديدة مثيرة، فيتعرض أبو الفتوح للتهديد والإغراء من أجل الصمت، وحينئذ يتم تهريبه مع زوجته إلى مدينة القاهرة، حتى يأتي موعد المحاكمة.

ولأن «أبو الفتوح الشرقاوي» صار قصة المجتمع القروي المفضلة، فإن أخبار براءته والإفراج عنه نهائياً، بعد ظهور «عنايات هانم» أمام المحكمة، غطت على أخبار الحرب العالمية الثانية، وهتلر، والضائقة الاقتصادية الاجتماعية التي تعاني منها مصر.

وتفاجئنا الرواية في النهاية بتغير «أبو الفتوح»، وتعهده بألا يكذب، وانضمامه للإخوان المسلمين (زمن الحرب العالمية الثانية)، وفتح شعبة لهم في القرية كان أبو الفتوح أحد أعضائها، وقد غمره الفرح عندما عرف أنهم سيعلمونه القراءة والكتابة، ويحفظونه القرآن مع غيره من الأميين.. ولم يعلم أن ذلك سيكون باباً لمتاعب من نوع جديد لا تخطر له على بال[2].

لقد حملت الرواية ـ دون بقية الروايات الأربع ـ عناوين لفصولها (العاشقة ـ الجريمة ـ الاتهام ـ فضيحة على الملأ ـ الدليل الجديد ...الخ وكأن الكاتب كان يوحي من خلال هذه العناوين بعملية تصعيد الحوادث وتناميها في صورة مباشرة، بيد أن طبيعة الموضوع الروائي، وارتكازه على الحدث الرئيسي وما يتعلق به (غرق السيارة وفضيحة عنايات هانم، وارتباط الموضوع بأبعاد سياسية وحزبية وصحفية)، قد

(١) السابق، ٦٨.

(٢) نفسه، ١١٦.

حافظت على حرارة السرد والتتابع، وجعلت من تداخل الأطراف المختلفة، كل في موضعه، وسيلة من وسائل التشويق، وازدياد الشغف لمعرفة مصائر الشخوص ونهايات الأحداث.

في رواية ملكة العنب تبدأ الأحداث بالكلام المثير الذي صرح به الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد في خطبة يوم الجمعة حول زكاة العنب، فالرجل عدّ الزكاة حق الله ويجب إخراجها للفقراء والمحتاجين، وهنا ثار اللغط بين مؤيد ومعارض، واستند المعارضون إلى أن العنب لم يرد في الأصناف التي ذكرتها كتب الفقه، وقال المؤيدون إنها واجبة بالقياس إلى زكاة المال. وهدد فريق من الفقراء بأنهم سيأخذون إن منعه المزارعون.. وثارت الفتاة «براعم» ـ ملكة العنب ـ وهددت الشيخ محمد الذي أثار الناس على أصحاب المزارع، ولكن الشيخ حاول إقناعها بأن ما يقوله هو واجبه الديني والعلمي..

ولم تتوقف المسألة عند هذا الحد، فقد مُنع الشيخ محمد من الخطابة، وتدخل المجلس المحلي في الموضوع، وأعلن أن الزكاة مسألة شخصية(!) وأن المهم هو أمن البلاد وتلاحم الجماهير(!) .. ثم تدخلت الشرطة .. وجاء واعظ المركز ليعتلي المنبر ويخطب عن الصبر ومناقبه، والآيات الكريمة التي نزلت فيه، والجزاء الذي ينتظر أصحابه في الجنة، والرضا بقضاء الله وقدره..

بعد انتهاء الصلاة يطلب الشيخ محمد من الناس الانتظار بضع دقائق، ويشير إلى تأميم الحكومة للمساجد، والحياة التي امتلأت بالمحاذير وحكمتها الطوارئ «إننا لسنا ضد النظام، ولكننا مع الحق، ونحن لا ننتهك الأمن، ولكن نمارس حقنا في الحرية.. ولا نقول إلا ماجاء به ديننا..»[1].

وتبدو المسألة تسير سيراً عادياً، والحوادث تمضي بغير حدة، ولكن تحدث مفاجأة عندما يصيح رجل في أثناء حديث الشيخ محمد بعد الصلاة، ويقول: «قتيل يا أهل الربايعة.. قتيل في عنب براعم» فيحدث هرج ومرج ، ويهرول الناس إلى خارج المسجد.

---

(١) ملكة العنب، ٢٢/٢٣.

وبينما ينشغل الناس بالقتيل مصطفى السلاموني وتاريخه الإجرامي بقتل زوجتيه السابقتين ، والحديث عمن يكون قد قتله، إذا بمكبر الصوت يعلن بعد تلاوة الآية الكريمة «كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» عن مقتل شاب في الثلاثينيات يعمل أجيراً في العراق أيام حربها مع إيران، وأشيع في القرية أن الجثة بها آثار عنف، واعتداء جسيم، وجمجمة مهشمة، وطلقة رصاص في الصدر. الميت ابن خالة الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد. وصدرت الأوامر بعدم إذاعة التقرير الذي كتبه الطبيب الشرعي. وتساءل الناس : «لماذا يقتل العراقيون أبناءنا الذين خدموهم وضحوا أكبر التضحيات من أجلهم أثناء الحرب وقبلها؟»[1].

وتساءل الناس عن سرّ سكوت الحكومة على جرائم العراق ضد المصريين، واشتعلت القلوب بالمرارة والأسى والغضب لدرجة أن العمدة، ضرب كفاً بكف وتساءل:

«هل التستر على الجرائم سياسة؟ لقد أصبح الفساد ينخر في كل شيء داخلياً وخارجياً، من سيدفع دية هذا القتيل أو يعطيه حقه؟»[2].

وتتصاعد الحوادث نحو الذروة حين تتحول جنازة القتيل العائد من العراق إلى مظاهرة ضد «صدام حسين» والحكومة وإسرائيل وأميركا. ويحضر الأمن المركزي بأسلحته وهراواته وقنابله المسيلة للدموع، فيفرق المظاهرة/ الجنازة، ويفر الجميع عدا الشيخ محمد الذي يبقى بجوار جثة ابن خالته، فيتم القبض عليه مع أربعين آخرين، من أهل الربايعة، ويقول له أحد الضباط في خشونة :

«– أنت ملتح .. وتقود المظاهرة .. لا بد وأنك من الجماعات الإسلامية..

ثم أشار إلى العسكر :

– ضعوا (الكلابشات) في يده، وسوقوه إلى السيارة!.

قال في استسلام :

---

(١) السابق ، ٣٨.

(٢) نفسه ، ٣٩.

– ليس هذا بجديد عليكم.. افعلوا ما شئتم يا أبطال الطوارئ»[1].

تثير تصرفات أجهزة الأمن كثيراً من السخط والاستياء والغضب، تضاف إلى مأساة قتل الأبناء في العراق وشحنهم جثثاً مشوهة إلى الوطن، وقد أثارت هذه التصرفات رمز السلطة في القرية، وهو العمدة الذي قال لقائد الحملة التأديبية :

«– إنكم يا باشا تسيئون إلى أنفسكم وإلينا..

قال الضابط في عنجهية:

– أنت يا عمدة لا تعرف الأبعاد الحقيقية لما جرى.

– بل أعرف .

– ماذا ؟.

– أهل القرية شعروا بالحزن والغضب من أجل ولدهم الضحية، وهذا أمر طبيعي جداً.

– الحزن في القلب يا عمدة، وليس بالمظاهرات.

– لم تحدث مظاهرة بالمعنى الصحيح.

– فماذا تسمي ما جرى؟؟.

– جنازة .. جنازة حارة لا أكثر.. الناس في القرية عندما يحزنون ـ يلطمون الخدود، ويشقون الجيوب ويلطخون وجوههم بالطين.. لكن ما حدث اليوم كان جنازة متحضرة.

– لقد هتفوا ضد الحكومة يا عمدة .

– ليكن..

– كيف تقول هذا الكلام؟ إنها مؤامرة، ونعرف من دبرها، وسنقدمهم لمحكمة أمن الودلة..

---

(١) ملكة العنب، ٤٠.

وستذهل عندما تقرأ اعترافاتهم..»[1].

وقد وفى الضابط بما قال، وكانت تحقيقات، وكان تعذيب وحشي بشع تعرض له جميع المعتقلين وعلى رأسهم الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد، الذي عُدّ رئيساً للتنظيم المتطرف، والشيخ أبو المجد شاهين، الرجل الصالح الذي أخذوه من بيته.

إن الرواية تكسر قتامة هذا الجو، عن طريق تقديم نموذج يقدم الحكمة الساخرة، إنه نموذج الحشاش المدمن «الراعي كشكل» الذي يكشف التحقيق معه عن مفارقات عجيبة في موقف عامة الشعب من الحكومة، حيث تعدّ الحكومة دائماً على حق[2].

ويضاف إلى هذا موقف السلطة من نواب الأمة، فقد تعرض نائب الدائرة الذي تضامن مع أهل الرابيعة إلى إهانات بالغة من الضباط والعسكر، وعندما شرح ما جرى له في مجلس الشعب، قابله نواب الحكومة بالصياح والاستنكار، وتحت ضغط الأغلبية، وتعليقات وزير الداخلية اللاذعة، أمر رئيس الجلسة بالانتقال إلى مناقشة قضية القروض الخارجية المتفاقمة!.

تقوم «براعم» الفتاة الطيبة ببذل الجهد والمال من أجل الإفراج عن المعتقلين، وتستعين بالمحامية الواصلة «سعاد الدباح»، ويتم الإفراج بالفعل، ولكن بعد أن اجتاحت القوات العراقية دولة الكويت، وتغير الموقف الرسمي للحكومة من صدام حسين!.

وهنا تبدأ الحوادث في الهبوط من الذروة، إلى موقف يصمم عليه الناس، وهو تطبيق الشريعة فيما بينهم، دون أن يعبؤوا بملاحقة أجهزة الأمن لهم، واتهامهم بتكوين «بيت مال الأمة» بناء على تحريضات رئيس المجلس المحلي المنحرف.

ويتحقق زواج الشيخ محمد حسب الله من براعم ملكة العنب بعد عقبات يضعها أقاربها في شنراق، وتبدأ مرحلة جديدة في حياة الرابيعة وأهلها.

وهكذا يبدو البناء الروائي للحوادث متماسكاً في روايات نجيب الكيلاني، كل

---

(١) السابق، ٤٣.

(٢) راجع الرواية ص٧٤-٨٠.

حادثة تؤدي إلى الأخرى بانتظام منطقي، مما حقق شرائط الحيوية للروايات وشخوصها وحوادثها. وفي الوقت ذاته جعل القارئ يتابع متلهفاً مصائرالشخوص ونهايات الحوادث، بعد استغراق مشاعره الذاتية..

سبقت الإشارة إلى أن الكاتب اعتمد على السرد بضمير الغائب، وهي طريقة لها ناحية إيجابية، تتمثل في قدرته على السيطرة على الحوادث وانتخاب ما يتلاءم منها مع موضوعه، وحشد التفاصيل في إطار منظم ومتناغم، ولها ناحية سلبية، حيث تعرض النص الروائي لما يمكن أن يسمى بالملل أو الرتابة أو برودة السرد، مما يجعل القارئ ينصرف عن النص، ويسقطه من حسابه في المتابعة واستكشاف محتواه، والتعرف على غايته..

وقد أفاد نجيب الكيلاني من قدرته الفنية العالية؛ نتيجة خبرته الطويلة في الكتابة القصصية، لتلافي الناحية السلبية، إذ إن طبيعة الحوادث التي اختارها وعملية ترتيبها، مع تلوينها بالمفارقات والطرائف الاجتماعية، قد حققت له تماسك البناء الروائي، وأعطته إمكانات كبيرة للإثارة الفنية، كما يسرت له قدراته اللغوية والأسلوبية انسياباً متدفقاً، أسهم مع العناصر الأخرى في تقديم بناء قصصي متكامل وجميل، يجمع إلى تفوق الحرفة سلامة التصور.

الأسلوب واللغة

يتحدث «هكسلي» في قصته تقابل الألحان Paint conter Paint، وعنوانها يوحي بتركيبها الموسيقى عن ضرورة «موسقة النثر القصصي. لا بطريقة الرمزيين بإخضاع المعنى للصوت.. ولكن على نطاق أوسع في تركيب القصة»[1].

ويشرح «جورج ديهاميل» أهمية موسيقى الأسلوب الروائي في إسهابٍ، نقتطف منه هذه الفقرات لأهميتها، ويقول فيها:

«إن موسيقى الأسلوب في نظري شرط لازم لسيطرته على النفوس. نعم إن الروائي الحق هو الذي يعرف قبل كل شيء بعضاً من أسرار الحياة، ولكنه أيضاً رجل يلجأ في التعبير عما يعلم، إلى موسيقى لفظية يستخدمها بطبيعته، فيتميز بها كأمارة خفية لخصائص نفسه.

ولا أكاد أجرؤ أن أقدم إلى الكتاب الناشئين نصيحة في هذا الميدان الشاق، ومع ذلك يتفق أن تدفعني الرغبة في خيرهم، أن أقول لهم: ليكن اللحن في أول كتبكم رائعاً. يجب أن تجذبوا القارئ في غير تعثر ولا مشقة، وهو لم يعرف بعد شخصياتكم الروائية، ولا تملكته وقائع قصتكم، أو قوة تصوركم، أو صدق نظركم النفسي ليكن في موسيقى الأسلوب ما يسهل له الأخذ في المغامرة. أجيدوا الغناء كي تأسروا تلك النفوس الشاردة التي تريدون أن تستولوا عليها.

قلت لغة سليمة، وأقصد بذلك لغة بسيطة. إذ من الهواة الذين ملّوا كل شيء، من يفضل التنقيب عن شواذّ اللغة، وشواذّ التركيب، واهماً أن أصالة الكاتب في الألفاظ والتركيب؛ بينما الأصالة الحقيقية ليست في الصياغة وخصوصاً عند الناثرين، وإنما هي صفة في النفس، حتى ليذكرني هؤلاء القراء الفاسدون بأولئك النهمة المنحلين، الذين يحلمون بالأطعمة الخارقة، فيودون أن يأكلوا (أوكار القطاة)، أو (خراطيم الحلاليف)، أو (أجنحة الزقا)، وتلك نزوة ساعة .. نزوة حقيرة.

---

(١) طه محمود طه، القصة في الأدب الانجليزي، ٢١٢.

إن غرائب الأسلوب ليست شيئاً، وإنما العبرة كما قلت بتلك الموسيقى التي لا توصف، والتي ماهي إلا نغمات نفس»[1].

وإذا كان «هكسلي» يتحدث عن موسقة التركيب القصصي لتحقيق التناغم بين العناصر الروائية المختلفة، فإن «جورج ديهاميل» يقدم درساً مفيداً، يحتاجه قصّاصونا وروائيونا العرب المعاصرون، الذين نظروا ـ في معظمهم ـ إلى اللغة والأسلوب نظرة دونية، وأهملوا ما يتعلق بالصياغة الصحيحة، سواء كان نحواً أو صرفاً أو تركيباً أو بياناً ..الخ، وعللوا ذلك أحياناً بالواقعية التي تقتضي التساهل في اللغة، والاهتمام بالبناء القصصي من حيث تصوير الشخصيات وترتيب الأحداث.

إن «جورج ديهاميل» يقدم درسه إلى جميع الكتاب الروائيين، وليس إلى الناشئين وحدهم، لإدراكه أن موسيقى الأسلوب أمارة نفسيه تدل على صاحبه، لذا فإنه يطالب الروائيين بإجادة الغناء للسيطرة على نفوس القراء، ولا شك أن عدداً من كبار روائيينا المعاصرين قد حققوا نجاحاتهم لدى القراء، بفضل أساليبهم الراقية بدءاً من المنفلوطي حتى يومنا هذا، ولولا الأسلوب الموسيقي ما بقي لهم في الوجدان شيء..

ثمة نقطة مهمة للغاية في كلام «ديهاميل» وهي حديث عن اللغة السليمة أو اللغة البسيطة .. فهذه اللفتة من جانبه تدل على وعي ناضج بطبيعة الأسلوب المتجه إلى القارئ، وضرورة أن يكون هذا الأسلوب فضلاً عن موسيقيته قائماً على السلامة اللغوية والبساطة التعبيرية، إذ إن التعقيد اللغوي والتقعر التعبيري لا يمكن أن يحققا أسراً للنفوس الشاردة ولا استيلاء عليها، إن بعض الكتاب يقعون في التعقيد والتقعر ظناً منهم بأن هذه الوسيلة المثلى لإبهار القارئ وإدهاشه، وإثبات الوجود الأدبي، ولكن هيهات أن يتناغم قارئ مع أسلوب بعيد عن وجدانه غريب على فطرته. إنه يبحث عن تلك الموسيقى التعبيرية الخفية التي لا توصف «كما يقول «ديهاميل» والتي يراها «نغمات نفس»..

ويعدّ نجيب الكيلاني من أبرز الذين برعوا في تقديم تلك الموسيقى التعبيرية الخفية، أو نغمات النفس التي أشار إليها «ديهاميل».

---

(١) محمد يوسف نجم، فن القصة، ١١٥-١١٧.

إن الرجل يلجأ إلى لغة سليمة. لغة بسيطة. يقدم من خلالها شخوصه وأحداثه دون أن يقع في مزالق التعقيد والتقعر أو الإغراب اللفظي والتركيبي.. بل إنه خطا خطوات أكبر، عندما استطاع أن يستفيد من النصوص الإسلامية والأدبية في إثراء لغته ومعجمه وقدراته التعبيرية أو التصويرية، ثم إنه كان على وعي بأن الاختزال في التعبير قد يحقق تأثيراً أقوى أضعاف المرات من الإسهاب والإطناب، ونجد ذلك في سرده وصفاً وتصويراً ولفظاً وحواراً وتضميناً وخيالاً. وسوف نتوقف عند بعض هذه الملامح لنرى كيف عالجها في لغة سليمة. لغة بسيطة، وحقق الغاية الفنية في صورة مؤثرة.

الوصف:

اعتمدت الروايات الأربع على السردّ بضمير الغائب، لذا فقد كانت مهمّة الكاتب هي تقديم العناصر الروائية الأساسية في سياق حيّ، يمنع الترهل والتضخم والحشو، وتوصل إلى ذلك بالتركيز في الوصف، والاختزال في التعبير ليبقي شحنة التفاعل بين القارئ والنص قائمة ومتوهجة، وقد لا نعثر في رواياته هذه على وصف مسهب أو تتبع دقيق للجزئيات، ولكننا بلا ريب نطالع وصفاً مركزاً دالاً يقدم لنا الشخصية أو الحدث تقديماً موسيقياً، شاملاً لكل المعاني التي يريد توصيلها، أو التي يتغياها.. دعنا نقرأ بطريقة عشوائية وصفه لشخصية عوض العوضي ذلك الأفاق الذي قبض عليه في جنازة قتيل العراق، عندما اعترف كذباً تحت وطأة التعذيب بأن الشيخ حسب الله، والشيخ أبو المجد شاهين كونا تنظيماً متطرفاً لقلب نظام الحكم، وفي هذا الوصف تقديم لأعماق رجل كان ينوي التوبة، ولكن التعذيب أجبره على إيذاء رجلين يحبهما لينجو بجلده:

«عاد عوض إلى الزنزانة، وهو يحمد الله على أنه نجا ــ ولو مؤقتاً ــ من حساب الزبانية، وارتمى على الأرض منهوك الجسم والعقل والروح، أحضروا له الزاد، كان جائعاً جداً، وأخذ يحشر فمه بالطعام.. لكنه توقف فجأة، طاف برأسه خيال العابد الزاهد أبو المجد شاهين، والرجل الصالح حسب الله، كيف سوّلت له نفسه أن يقول في حقهما ما قال؟ ألكي يحافظ على حياته؟؟ ليته مات ولم يفعل ما فعل. وهل في حياته ــ حياة الخطف والسلب والهروب واللعنات ــ ما يحرص عليه؟؟ لقد ظن أن

حياته ستبدأ من جديد عندما وعدته براعم بالعمل عندها وأعطته عشرين جنيهاً.. عندها فكر فعلاً أن يغير من نظامه، ويدخل ميدان العمل الشريف.. لكن للأسف وقع في المصيدة وهو يسير في الجنازة.. إنه دائماً يشارك في كل جنازة وفي كل فرح ويهتف مع الهاتفين من كل لون، ويبكي مع الباكين، إنه يستخدم عواطفه وطاقته في كل ما يعود عليه بالنفع.. يسير في موكب كل مرشح في الانتخابات، ويأخذ المال من كلا المتنافسين، ويأكل على موائد الجميع.. لكنه في يوم الانتخابات لا يدلي بصوته لأحد..

لقد ارتكب الكثير من الموبقات، لكنه يشعر اليوم أن الشهادة الزور التي دفعه إليها الضابط أشد الموبقات ضلالاً في حياته.. كان في مقدوره أن يفعل أي شيء إلا أن يتهم أبو المجد وحسب الله.. تمتم: أنت يا عوض وسخ وابن حرام»[1].

تأمل تلك الصورة الناطقة بأعماق رجل قضى حياته في البحث عن المنفعة، ولا شيء غير المنفعة، ضارباً عرض الحائط بكل القيم والأخلاق، ثم يقع في المصيدة عندما يتهيأ للتحول والتغير والانتقال إلى عالم الأسوياء؟ ثم تأمل ذلك المعجم الإسلامي الراقي الذي يأتي قريناً لكل ما هو طيب وجميل «يحمد الله، العابد الزاهد، الرجل الصالح، العمل الشريف» ثم تأمل تلك اللغة التي تتطابق مع موقف الغدر والخيانة والشهادة الزور: أنت يا عوض وسخ وابن حرام»، إنها لغة العامة حين يصفون الشخص المنحرف الذي لا خلاق له، وجاءت دلالتها أدق تعبيراً عن حالة يصعب أن توضع لها ألفاظ أخرى، مع ما فيها من ابتذال، ولكنه الابتذال الذي يتناسب مع الجريمة البشعة التي ارتكبها «عوض العوضي» في حق الرجلين الطيبين.. ثم تأمل تلك المفارقة في وصف الرجل لنفسه من الداخل وإحساسه بالدونية، في الوقت الذي يعلم حاجة الجميع إليه وإلى هتافه وبكائه وسيره في كل المواكب واستفادته من الجميع، ومع ذلك فهو أناني لا ينفع أحداً ولا يخدم أحداً «في يوم الانتخابات لا يدلي بصوته لأحد!».. ثم تأمل وصف الكاتب له بعد التعذيب وخروجه من الزنزانة «منهوك الجسم والعقل والروح»، ليكشف عن أثر التعذيب الممتد الذي يتجاوز الجسد، إلى إنهاك «العقل والروح»، وما أدراك ما العقل والروح

(١) ملكة العنب، ٦١.

بالنسبة للإنسان إذا أنهكا أو تعبا ؟ إنه حكم معنوي بالموت على صاحبهما.. إذ ما الفائدة من إنسان بلا عقل ولا روح، ولكنه التعذيب الوحشي يقتل الروح والعقل، قبل أن يؤلم الجسد أو يجرحه!! ثم تأمل تصوير الكاتب لإحساس المجرم بالذنب دون أن تملك الضحية الردّ على جريمته أو استنكارها «ليته مات ولم يفعل ما فعل» و«كان في مقدوره أن يفعل أي شيء إلا أن يتهم أبو المجد وحسب الله.. تمتم : أنت يا عوض وسخ وابن حرام»!.

إنها لغة سليمة. لغة بسيطة، تحقق موسيقية التعبير ودلالاته التي تقصد إليها الرواية دون افتعال أو تكلف، وأيضاً دون ترخص أو إسفاف ، ولعلنا لو أخذنا بطريقة عشوائية أيضاً ، نموذجاً آخر يصور فيه حالة «المدمن»، وقد امتنع عليه «المخدر» يكشف لنا عن عمق الحساسية الوصفية أو التصويرية التي يملكها الكاتب الخبير بلغته الروائية؛ إنه يصف لنا في النموذج التالي موقف «الراعي كشكل» الحشاش المدمن الذي تم اعتقاله في أحداث جنازة قتيل العراق، وأخذوه للتحقيق :

«جاء دور الراعي كشكل» الذي بدا أسوأ حالاً من الجميع، فهو عاجز عن التفكير، قد خاصم النوم جفنيه، رأسه يكاد ينفجر من هول الصداع، وآلام البطن تمزق في أحشائه، ولا يستطيع أن يفتح عينيه المحمرتين المتورمتين، وكل أجزاء جسمه تنبض بالألم، فقد عاش سنوات عمره حليفاً «للكيف»، ليتهم يأخذون نصف عمره ويعطونه ريحة أفيون، أو قرصاً من الأقراص المهدئة، أو ربع حشيشة، إن الإنقطاع المفاجي عن الكيف يكاد يذهب بالبقية الباقية من عقله، وأحياناً يشعر أن روحه تخرج من جسده لولا بقية تافهة من إرادة في الأيام الخوالي، كانوا يأخذونه إلى الحجز في نقطة الشرطة أو المركز، لكن لم يعدم حيلة في الحصول على المخدرات، العسكر أنفسهم كانوا يهربون إليه ما يريد، ويتقاضون الثمن أضعافاً مضاعفة، لكنه في أمن الدولة يجد نفسه سجيناً محاصراً عاجزاً عن التصرف، إنه لا ينشغل الآن بأمر السياسة، ولا يفكر في المظاهرة، ولا في القضية التي هو بسببها، والتي لم تخطر له على بال قط، حتى أثناء هيمانه في دنيا المخدرات عند التعاطي، فالمدمن أناني بطبعه، ولا يهمه زوجة أو ابن أو وطن أو قيمة من القيم. أخذ يدق باب الغرفة في جنون، طالباً الطبيب، لكن العسكر أنبوه وضربوه، كان كمن فقد الإحساس لا يشعر بآلام

الضرب، بليداً لا يعي معنى الإهانة، صفيقاً لا يكترث للتقريع»[1].

إن الرواية تقدم لنا وصفاً دقيقاً لحالة المدمن عندما ينقطع عن تعاطي المخدر حيث يعيش الآلام المبرحة التي تطال كل أجزاء جسده، ويعبر الكاتب عن ذلك بعبارات دالة يستخدم فيها بعض المصطلحات العامية المحفورة بمعانيها في الذهن العام (عاش سنوات عمره، حليفاً للكيف»)، (ليتهم يأخذون نصف عمره ويعطونه «ريحة أفيون»)، أو ربع حشيشة»)، ثم يصف لنا الحالة الذهنية والنفسية التي يحياها «يشعر أن روحه تخرج من جسده»)، ويقدم لنا مفارقة دالة بين الأمن في أقسام الشرطة وأمن الدولة، في الأولى يجد المرء متنفساً للحركة، بل يستطيع أن يشتري المخدرات. أما في الثانية فلا أحد في الخارج يدري به، وهو ما يعني أن من يوضع هناك مظلوماً، فإن ما يعانيه يفوق طاقة البشر، «والراعي كشكل» مثال لواحد من المظلومين الذين وضعوا هناك ظلماً، لأنه لا شأن له بالسياسة، يدل على ذلك إدمانه الذي يجعله لا يفكر في أقرب المقربين إليه : الزوجة والابن والوطن.. ويفقد الإحساس بالضرب والإهانة والتقريع! .

وإذا كان «نجيب الكيلاني» يتكئ على المصطلحات العامية أحياناً في وصفه أو تصويره للشخوص والحوادث، فإنه يتوسع أحياناً في ذلك، ليعتمد على الخيال الشعبي وحكاياته ليصف موقفاً روائياً ذا دلالة، أو يفسر حادثاً من الحوادث لا تستبين حقيقته، ويستخدم في ذلك مهارته الأسلوبية التي تخدم هذا النوع من الخيال، مثل الجمل القصيرة، والتقليل من أدوات الربط، والاستفادة بالآيات القرآنية، والأمثال الشعبية، والاستفهام التعجبي أو التقريري، أو الإنكاري ويمكن أن نجد مثالاً جيداً لذلك في تفسير «أبو الفتوح الشرقاوي» لحادثة غرق السيارة في البحر العباس، وهو يدعي العلم بتفاصيلها أمام أهل القرية :

(من واقع سجلات النيابة القصة هكذا .. امرأة البك الكبير أخذت عشيقها، وهربت معه.. وصلا إلى منطقة مقطوعة على البحر العباس.. جلسا تحت مظلة القمر يشربان الخمر.. ويمارسان الرذيلة.. كانت بيضاء جميلة مثل الأميرات الفاتنات..

---

(١) ملكة العنب، ٧٤ وما بعدها.

عبثا ما شاء لهما العبث.. نزلا النهر ليستحما.. «إن ربك لبالمرصاد» صدق الله العظيم.. سحبتها جنية البحر إلى الأعماق.. هرب العشيق، وقف على الشاطئ يلطم خديه.. وأخيراً طفت جثتها على السطح.. نادى العاشق : «البر يا طالب الدفن» كما نقول نحن لكل غريق.. وجد جثتها تقبل صوب الشاطئ ... صرخ.. تجمع الناس .. نعم في الليل.. بل بعد منتصف الليل .. لا أدري، هذا ما حدث.. أقبل الناس من كل مكان.. كيف ؟؟ حكمة ربنا يا مؤمن.. هل تنكرون أن الله قادر على كل شيء ؟؟ أمر يؤسف له.. استولى اللصوص على المجوهرات والملابس.. وساقوا العشيق إلى دوار العمده .. ومنه إلى المركز..

انقلبت الدنيا رأساً على عقب.. بوليس .. نيابة.. خيول.. عربات إسعاف.. الظاهر أنهم باشوات.. هم ملوك الفضائح..)[1].

هذا ما تفتق عنه خيال «أبو الفتوح الشرقاوي»، وأنكره عليه الطفل «شوقي» أمام الناس، ولكنه أصرّ على أقواله التي أودت به فيما بعد إلى السجن والعذاب والمحاكمة، ولكن يبقى أن ما قاله «أبو الفتوح» ولو كان منسوباً إليه، إلا إنه في حقيقة الأمر ينتسب إلى الخيال الشعبي في تفاصيله وتصوره للطبقة العليا وسلوكها، فضلاً عن آثار القصص الشعبي الذي يغذي الوجدان.

ويمكن أن يلحق بالخيال الشعبي في الوصف ما يمكن تسميته بالأسطورة الممتزجة بالدروشة (شبه التصوف)، وهي نوع من التراث الشعبي الذي يصوغه الناس بطرق شتى وفقاً لتصوراتهم وأماكن تجمعاتهم، وإن كان مدلوله في النهاية ينبئ عن غاية واحدة.

يتحدث عبد المتجلي مع زوجه أم صابرين :

«– يقولون إن جدي كان من أهل الخطوة.

– كيف ؟

– زعم رجال القرية الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج في الأراضي المقدسة، أنهم

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ١٠.

رأوه هناك يؤدي الشعائر في الوقت الذي يعلم الجميع أنه لم يغادر كفر أبو سالم.. الّذين ذهبوا رأوه هناك، والذين بقوا رأوه هنا.. أتصدقين؟!..

زمت شفتيها مفكرة، وأجابت..

– ولم لا ؟؟ إن الله قادر على كل شيء..

– نحن اليوم لا نصدق إلا ما نراه ونلمسه.

– قد يكون جدك من أهل العلم والولاية..

اعتدل وأخذ يحدثها عنه، اعترف لها أن جده لم يكن عالماً، بل كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، عاش كمن يهيم في حلم أو غيبوبة.. هكذا قالوا .. أنا لم أره.. رووا لي أنه كان يلبس جلباباً رخيصاً على اللحم، صيفاً وشتاءً، ويمشي حافياً، ويميل على أي بيت أو يجلس في أي موقع ليتناول لقيمات.. لم يشته طعاماً بعينه.. كان يقول كلمات مفهومة أحياناً، وغير مفهومة أحياناً أخرى.. ومن ضمن ما أخبروا به أن بعض من حاولوا إيذاءه أو السخرية منه تعرضوا لعقاب ظاهر من الله، فأتوا إليه راغمين معتذرين عما بدر منهم، وطلبوا منه السماح.. وأخبرني رجل معمّر قضى منذ بضع سنوات أنه كان يتوقع بعض الأحداث ويحذر.. ولكني يا أم صابرين مؤمن أنه لا يعلم الغيب إلا الله..»[1].

يستطيع أي فلاح مثلي أن يزعم أنه سمع هذه القصة مسنودة إلى شخص ما في قريته، وإن اختلفت التفاصيل قليلاً أو كثيراً، ولكن ورودها في السياق السردي، يقوم ـ كما القصص الأخرى ـ يدور في كسر حدّة الرتابة والملل الذي قد يصيب القارئ، ثم إن استدعاء الجد أو الأب الأعلى، يمثل حالة من الإشباع الروحي والعاطفي التي توازي حالة الإحباط والإخفاق السائدة في حياة عبد المتجلي، وبخاصة أن هذا الجد يمثل الصلاح والطيبة، وقهر المؤذين والساخرين.

ويمكن أن يلحق بالخيال الشعبي والأسطورة الشعبية «الحلم» أو «الرؤيا المنامية»، فهو تغيير في سياق السرد الوصفي، وكسر لحدته، فضلاً عن كونه وسيلة من وسائل

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٣٦/٣٧.

البناء الدرامي للرواية تعويضاً عن قسوة الواقع وجهامته أو تمهيداً لما سيحدث من وقائع الرواية، ومن ذلك الحلم الذي رآه عبد المتجلي وهونائم على السطوح بامرأة لم يطمثها إنس ولا جان، وكان الحلم تمهيداً لزواجه من «أم صاربين»[1].

ومنه أيضاً ما قيل عن حلم رآه العمدة في «الربايعة»، حيث رأى أنه ذهب إلى ميضأة المسجد، فسمع من يقول له : يا عبد الشافي اخلع عنك ملابسك النجسة، واغتسل هنا وتطهر، والبس ثياباً طاهرة، ثم اذهب إلى بيتك، ولتبك على خطيئتك. وحينما أفاق العمدة من نومه، استغفر الله وبسمل وحوقل، ثم أيقظ زوجته، وروى لها الرؤيا، وكان تفسيره لها أن منصب العمدية وبال وشرّ، وأنه لابد أن يخلع عنه هذه الشبهة، ولذلك استقال في اليوم التالي بعد أحداث الجنازة وتشييع قتيل العراق[2].

ويستغل «نجيب الكيلاني» قدرته الأسلوبية على السخرية وهو يسرد الأحداث أو يعلق عليها، تنفيساً عن المرارة والقهر...

يقول عبد المتجلي عن علاقته بالونش : «أنا والونش أخوان تربط بيننا أواصر التكنولوجيا»، أو يقول أحد الحشاشين في تعريف زملائه بعبد المتجلي : «أخوكم الأستاذ عبد المتجلي قدم من بلد صغير على شمال السماء يبحث عن الونش المفقود»[3]، أو يقول عبد المتجلي مخاطباً الونش الصغير الذي يشبه الونش المسروق : «إني سائلك أيها الونش الحبيب من سرق أخاك؟ لو نطقت لكفيتني السؤال وعذاب الحيرة.. »[4].

وعندما يتحدث عبدالمتجلي مع زوجه عن جده الذي كان يعده الناس من أهل الخطوة يعلق الراوي قائلاً : «وأهل الخطوة الآن كما تعتقد أم صابرين، هم رجال الأعمال النابهين القادرين (كذا!) على تحقيق أكبر قدر من الربح، في أقصر وقت من

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٤٥/٤٦.

(٢) ملكة العنب، ٤٩.

(٣) اعترافات عبد المتجلي ، ٥٣.

(٤) الساق، ٥٨.

الزمن، وبأيسر السبل، وأكثرها أمنا.. »[1].

وتكثر السخرية السياسية في مجالس الحشاشين خاصة، وهي على كل حال نوع من التنفيس عن المرارة والقهر والإحباط، ونجدها بغزارة في روايتي «اعترافات عبد المتجلي» و«ملكة العنب»، ومنها على سبيل المثال ما جرى في لقاء عبد المتجلي بالحشاشين في مجلسهم لأول مرة، ويصفهم أحدهم بأنهم قوم كرماء «ولديهم حصانة قوية ضد أوجاع الهمّ والغمّ والكوليسترول والأفكار السوداء. تفكر عبد المتجلي قائلاً:

– ألا تخافون أن يداهمكم العسكر؟.

ضحك الأسطى حنفي المتولي ضحكات قصيرة متتابعة، وقال:

– إنهم منا.

– كيف ؟؟.

– بعضهم يشاركنا الجلسة. ألسنا القاعدة الشعبية؟.

– لهذه الدرجة؟.

– بل هم من مباحث المخدرات نفسها..

– يا للمصيبة!!.

– يا بني أولاد مزاج.. لو كنتُ ممن بيده السلطة لخصصت دعماً أو على الأقل علاوة للمساكين مثلنا..»[2].

وإذا كانت السخرية تضفي حالة من المرح أو تثير بعض الابتسام، عند القراءة، فإن الصور الجزئية التي يصوغها الكاتب عبر سرده الوصف تمنح أسلوبه طاقة إضافية من الحيوية والجدة، وبخاصة إذا كانت هذه الصور تحمل لوناً من الطرافة أو الدلالة الرمزية، ويقابل القارئ كثيراً من هذه الصور على مدى صفحات الروايات الأربع،

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٤٢.

(٢) اعترافات عبد المتجلي، ٥٠/٥١.

ومنها على سبيل المثال.

«طاقاته (أي عبد المتجلي) في حاجة إلى «منظمْ كالذي يضعونه في أنابيب الغاز، قد تستغرقه أمور تافهة أو ثانوية، ويهمل كبريات القضايا ..»[1]، وكأن الكاتب يريد من الجيل الجديد الذي يمثله عبد المتجلي، ألا ينشغل بالفرعيات والجزئيات، ويركز على القضايا الكبرى والأساسية.

«لشدّ ما أصبحت نحيلة!! الذئاب يسرقون طعامك كما سرقوا عمرك وعمر أبي.. وكما سرقوا الونش الضحية..»[2]. لقد قال عبد المتجلي ذلك، وهو يحتضن أمه بعد عودته إليها، وكأنه يشير إلى الوطن أو مصر التي سرق الذئاب (اللصوص الكبار) طعامها وعمرها حتى صارت على ما هي عليه، فالمماثلة واضحة بين مصر والأم.

«جلبابه يشع طهراً ونقاءً [3] كناية عن استقامة الشيخ محمد حسب الله، وتأمل الاستعارة التي جعلت الجلباب مثل الشمس أو القمر يشع الطهر والنقاء.

«فبدا له (يقصد دخان الحشيش) كأنه ذيل سفينة فضاء أمريكية ترتفع إلى السماء»[4]، والطريف هو استدعاء سفينة الفضاء الأمريكية لرسم الصورة.

«وأنا أتواثب كالقرد الذي وضعوه في فرن»[5]، يشبه «عوض العوضي» نفسه، وقد تعرض للتعذيب الوحشي في جهاز الأمن، فلم يعد قادراً على تحمل الألم، وراح يقفز هنا وهناك.

---

(١) السابق، ١٨.

(٢) نفسه، ٢١.

(٣) ملكة العنب، ٥.

(٤) السابق، ٣٠

(٥) نفسه، ٥٧.

البناء اللغوي :

المعجم لدى الكيلاني إسلامي لفظاً وصياغةً وانتماءً تراثيا، نراه على مدى رواياته، وقد ألمحنا إلى طرف منه عند تناول النماذج الوصفية التي توقفنا عندها.. ولكننا نضيف إليها معالم أخرى توضح لنا أن معجم الكيلاني في بعض جوانبه يتناصّ مع مفردات التراث القديم في صياغة جمله وبناء تراكيبه اللغوية، ولنقرأ مثلاً قول خطيب المسجد للناس كي يقطع الطريق على امتداد الأزمة بين العمدة وعبد المتجلي:

«قوموا إلى بيوتكم يرحمكم الله»[1] ، فهو يذكرنا بالمأثور : «قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

ثم نقرأ كلام عبد المتجلي، وهو يقف وسط الغرفة وحيداً يصرخ : «أيها الناس، العدو أمامكم والبحر من خلفكم، أنتم محاصرون، فتحركوا وإلا غشيكم موج من فوقه موج، وأقبلت عليكم الظلمات بقضّها وقضيضها، أنتم نائمون والونش يسرق في وضح النهار، من يدري؟.»[2].. إنه يذكرنا بالخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد عند فتح الأندلس والآية الكريمة في سورة النور : «أو كظلمات في بحرٍ لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب»[3]، أو يذكرنا ببعض الأحاديث الشريفة عندما يتلقى عبد المتجلي لفافة من اللحم المشوي والأرز المتبل وهو جائع، ولم ير اليد المجهولة التي منحته اللفافة، فيقول : «رزق ساقه الله إليك يا عبد المتجلي.. كل، واهنأ، واحمد ربك، وتأكد أن العناية الإلهية ترعاك»[4].

بيد أن الذي يعنينا الإشارة إليه هنا، هو أن أسلوب الكيلاني تتردد فيه الألفاظ الإسلامية بوصفها وعاءً عاماً يحمل معانيه وأفكاره، وهو ما نفتقده لدى الكثيرين من كتاب هذا الزمان الذين خاصموا المعجم الإسلامي لسبب وآخر، ففي روايات الكيلاني تستطيع أن ترى معجماً حافلاً بالمفردات الإسلامية مثل النور والإشراق

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ١٤.

(٢) السابق، ٢١.

(٣) سورة النور، ٤٠.

(٤) اعترافات عبد المتجلي ، ٣١.

والفرح والرحمة والرضا والتكبير والتهليل والبركة والتسبيح والحمد والتوقير والنعمة والتقوى والاستغفار والبسملة والحوقلة والطهر والصلاة والشريعة والحقيقة والبراق والرزق والزهد والصلاح والدعاء والجنة والآخرة والاستعاذة والاستعانة والرجاء والسلام والغيب والهدى والزكاة والصيام والحج والحق والتسامح والمنبر والمسجد والطاعة والصبر والقضاء والقدر والإنصاف والعدل... الخ، مع مشتقات هذه الألفاظ وما يقابلها في الدلالة إسلامياً.

وفي الوقت ذاته فإن الكاتب يعطي لمعجمه مذاقاً خاصاً حين يستخدم المصطلحات الطبية بوصفها أثراً لثقافته الطبية وتخصصه العلمي في مجال الطب، فنرى مسميات : الرجيم، والكولسترول، وضغط الدم، والذبحة والأنيميا وفقر الدم والبلهارسيا والإدمان وجرعات الدواء..

ثمة مفردات علمية أخرى دخلت إلى معجم الروايات مثل الأوزون وصواريخ الفضاء والتكنولوجيا وغيرها..

ويمكن القول إن المعجم لدى نجيب الكيلاني معجم إسلامي يستفيد من المصطلحات الحديثة أيا كان نوعها، مما يجعل معجمه غنياً بالمفردات والمشتقات والتراكيب المتميزة.

وقد خطا معجم الكيلاني خطوة أخرى عندما تعامل مع الألفاظ التي صنعتها الأوضاع الاجتماعية الجديدة وما أحدثته من خلل في البنيان الاجتماعي والخلقي، فهو يستخدم مثلاً لفظة «خنزيرة» تسمية لنوع من السيارات «المرسيدس» الفخمة : «غداً بعد صلاة الفجر سآخذك في خنزيرتي ونرحل»[1] أو يستخدم الفعل «ترش» تعبيراً عن الرشوة بدلاً من الفعل ترشو، حيث صار مفهوم «الرش» في الواقع الاجتماعي الجديد مرادفاً للرشوة، فيشير إلى أن أم صابرين استطاعت أن «ترش بعض الأموال على أصحاب السلطة حتى لا يعوقوا مسيرتها»[2].

ولكن القارئ يطالع في مواضع عدة، استخدامات أخرى ذات دلالات عامية،

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١٣١.

(٢) السابق، ٨٦.

مثلاً عندما يعدّ العمدة مائدة من الدجاج والحمام واللحوم والأرز المحمرة للمسؤولين القادمين إلى القرية نجد التعليق التالي :

«كله من شقا المساكين .. حار ونار يا حكومة» وهو تعبير شعبي يدل على السخط الناتج عن الظلم والقهر. وعندما اتهم «أبو الفتوح الشرقاوي» بأنه جاسوس لهتلر، كان التعليق :

«هو لا له في العير ولا في النفير.. أحلف بالطلاق من ذراعي إنه تلفيق في تلفيق.. دا فُجر يا ناس.. مال أبو الفتوح وهتلر؟ كلام فارغ يا عالم .. حكومة فاضية»[١].

وقد يكون اللجوء إلى العامية في مثل هذه المواقف أكثر دلالة وعمقاً بالنسبة للمصريين، ولكنه قد يستعصي على الفهم الدقيق لدى الشعوب العربية الأخرى عند تعبيرات بعينها مثل «أحلف بالطلاق من ذراعي».

وكذلك الحال من قول المتهم للضابط عند التحقيق : «في عرض النبي أنا لا أفهم»[٢]، فعرض النبي يشكل معنى له أكثر من دلالة تذهب بمفهومه الأصلي عند من لا يفهم العامية المصرية .. ويمكن أيضاً أن يحدث الموقف ذاته بالنسبة لسؤال الضابط : «اسمك وسنك وعملك يا روح أمك»[٣]، فروح الأم معناها المدح في المعنى المباشر، ولكنها عند المصريين تعني السخرية والاستهزاء.

هناك بعض الكلمات التي تحمل من المعاني أكثر من معناها المباشر أو المجازي، فمثلاً عندما يمثل «الراعي كشكل» أمام ضابط التحقيق، فإنه يطلب قرصين من المخدر، كي يعترف بما يريد منه، فيقول الضابط للمخبر : «هات قرصين زفتاً وكوباً من الشاي»[٤]. فكلمة «زفت» تشير إلى المخدر، والكلمة في ذاتها تشير إلى القطران واللون الأسود، ثم إنها بعد ذلك توحي بحالة الغضب التي تملكت الضابط نجيب لرغبة المتهم الذي يعد حقيراً بالنسبة له، ويفترض أنه هو الذي يستجيب

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٣٢.

(٢) ملكة العنب، ٥٦.

(٣) السابق، ٥٥.

(٤) نفسه، ٧٥.

لمطالب الضابط.

كذلك عندما نجد «عوض العوضي» يستجيب لرغبة «براعم» بالاستقامة والعمل معها، بعد أن منحته عشرين جنيهاً، فإنه يعبر عن رضاه واغتباطه بأسلوب يحمل المعني العكسي، ولكنه في المفهوم العامّي يؤدي المطلوب بعمق ودقة، إنه يقول لها تعبيراً عن حالة النشوة والفرح التي تملكته.

«أروح في داهية ياست براعم.. أنت من الواصلين .. ربنا يجعلنا من بركاتك»[1].

بيد أن الكاتب قد يقع في خطأ استعمال بعض الألفاظ التي شاع استعمالها خطأ، مثل : «الشيء الهام» ، والصواب «الشيء المهم» ، لأن «الهام» يحمل معنى الهمّ والحزن، وهو مالا يقصده الكاتب بالضرورة، ويتكلم عن «القصص الشيقة» والصواب «القصص الشائقة» لأن الشيقة هي المثيرة للشوق أما الشائقة فهي الممتعة كما يقصد الكاتب[2]. ويقول : «لو (نما) إلى علم المسؤولين[3]، والصواب (نمي)، لأن نما الأولى تعني النمو، وتكتب بالألف لأنها منقلبة عن واو. أما الثانية فهي تعني الإخبار، وتكتب بالألف المقصورة. ويقول «كانوا متواجدين في تلك الليلة»[4]، والصواب موجودين أو حاضرين، لأن التواجد من الوجد وشدة الشوق، وهو مالا يعنيه الكاتب.

وهناك استخدامات غير مقبولة لبعض الألفاظ، كأن تقول «مسعدة» لجاموستها وهي تحلبها :

« يا عاهرة.. يا قليلة الحياء.. اثبتي حتى أحلب اللبن.. عذبتني عذبك الله في جنهم»[5]، ولفظة «عاهرة» غير مقبولة في السياق، وإن كانت الفلاحات تستخدم

---

(١) نفسه أيضاً، ١٠٠.

(٢) اعترافات عبد المتجلي، ١١.

(٣) السابق، ١٥.

(٤) ملكة العنب ، ٢٧.

(٥) السابق، ١٢.

كلمة أخرى قبيحة، وحذفها لا يؤثر على السياق بحال.

ومع سلامة البناء اللغوي بصفة عامة، فإن هناك بعض الأخطاء النحوية القليلة التي تقع أحياناً بسبب العقل الباطن الذي يرى الأشياء صحيحة، ولكن اليد التي تكتب تسجل غير ما يحمله الذهن، ومنها مثلاً قوله: «لكن هناك قلق داخلي»[1] والصواب «ولكن هناك قلقاً داخلياً» لأن اسم إن أو لكن منصوب دائماً، وقوله «هل وظفتني الحكومة حارساً على المحامون»[2]، والصواب «المحامين» لأنها مجرورة بعلى.

الحوار:

يمثل الحوار في روايات نجيب الكيلاني جانباً مهماً في البناء اللغوي، والبناء الروائي بصفة عامة، فهو من ناحية يكشف عن أعماق الشخوص وتحولاتها، ويلقي أضواء على مسار الأحداث وتفاعلاتها، ومن ناحية أخرى يظهر مدى قدرة الكاتب على الاستفادة من الحوار في إثراء اللغة القصصية والتغلب على عيوب السرد بضمير الغائب، وقد استطاع نجيب الكيلاني أن يوظف الحوار توظيفاً جيداً، وأن يقدم حواراً راقياً يجمع إلى الاختزال الشاعرية وعمق الدلالة.

وها هو نموذج لحوار عبد المتجلي مع شيخ الخلوة بمسجد السيدة زينب عن طلاقه لأم صابرين واختفائها وفيه يستشهد الشيخ بقول الإمام البصري «شغلني تَوَقُّع بلائها عن الفرح بنعمائها»..

ووجد عبد المتجلي نفسه يقول للشيخ:

«- لقد أخطأت.

- وما الفائدة؟.

- علمي بالخطأ بداية الإصلاح.

- لكنك تحبها.

رد عبد المتجلي بانفعال:

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١٥٢.

(٢) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٢٣.

– أم صابرين؟.

– بل الدنيا.

– لكني لا أفكر إلا في أم صابرين الآن.. لقد طلقتها ظلماً..

هز الشيخ رأسه :

– طلقتها ولم تطلقها..

– هذا حق.. إنها لم تزل تسكن قلبي.

– دنيا

– أين أجدها يا مولانا؟

– أنا لا أعرف الغيب.. ولكنها بالتأكيد في الدنيا.. ابحث تجد..

– هائم على وجهي لا أعرف لي طريقاً.

– ذلك هو الضلال البعيد.

– أنا مؤمن وأخشى الله.

– وكيف يكون المؤمن مهيض الجناح يا ابن رمانة؟ العاشقون يطيرون بغير أجنحه، وقلوبهم لها عيون.. هم محلقون دائماً.. إن المؤمن الحقيقي هو الذي لا يخاف الغد.. يعمل ويعمل ويترك الأمر لله.. أصبحت سلطاناً يا ابن رمانة.. السلاطين يخافون زوال الملك والنفوذ، وأنت أيها الراقص في وحل الدنيا..

– إنها حقي، ولهذا خلقها الله.

– أجل، لكن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، أنت لم تعد تقرأ القرآن كالأمس..

لم تعد لك قضية كبرى... الخ»[1].

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١١٤/١١٥.

ويكشف الحوار كما نرى، عن حقيقة مشاعر عبد المتجلي تجاه زوجته، كما يبين عن حيرته بين ماضيه الذي كان ينشد فيه المثال، وحاضره الذي يستسلم فيه لمعطياته المادية، وينبئنا الحوار كذلك عن الخلل الخطير في حياة عبد المتجلي، وهو تعلقه بالدنيا وابتعاده عن القرآن وانعدام القضية الكبرى التي يجاهد من أجلها! إن الحوار هنا عنصر إضاءة للشخصية وأعماقها المكنونة.

بيد أن الحوار يحقق غاية أخرى، هي ما يمكن أن نسميه بالسخرية السياسية، أو النقد السياسي، وهي مسألة تبدو عسيرة فنياً، ولكن الكاتب يسخر الحوار، وخاصة حوار الحشاشين، لممارسة هذا النقد وتلك السخرية، من ذلك مثلاً ما قاله «الراعي كشكل» في إحدى جلسات التحشيش عن أمريكا، فيصفها بأنها بلد العجائب، وشعبها هو الذي ينكل بالشرطة، وليست الشرطة هي التي تنكل بالشعب، وأن الحرية فيها غير محدودة في كل شيء.. والسجون هناك مثل فنادق الدرجة الأولى، وعندما يسأله أحد المبهورين : ولماذا لا نتجنس بالجنسية الأمريكية؟ أليسوا في حاجة إلى خبراء من أمثالنا؟ فيرد الراعي ساخراً :

– بلدنا في حاجة إلى خبراتنا، قولوا بربكم هل سيجدون من يضربونه إذا نحن هاجرنا؟ وإذا هاجرنا فلا بد أن نترك هنا أقفيتنا وأردافنا»[1].

ويوظف الكاتب هذه السخرية عن طريق المفارقة ليحدث أثراً مباشراً وعميقاً لما يريد توصيله على لسان شخوصه، ولعل ما قاله «الراعي كشكل» أيضاً، في التحقيق بأمن الدولة يكشف لنا عن هذه المفارقة، ومعذرة لطول الاقتباس، يقول الراعي للضابط :

– لقد عرفت طريقي من قديم.

– أي طريق يا راعي؟.

– أن أكون مع الحكومة بالحق والباطل.. أنا مواطن مثالي يابك.. تستطيع أن تقول أن لا رأي لي شخصياً في مثل تلك الأمور، الرأي رأي الحكومة.. وعلينا السمع

---

(١) ملكة العنب، ١٨.

والطاعة.. لقد تعلمنا أن نطيع ولي الأمر..

قال الضابط في دهاء:

– وإذا حادت الحكومة عن الشرع ؟؟.

هز الراعي كشكل كتفيه وقال:

– هي حرّة.

– وإذا ظلمناك.

– الحكومة دائماً على حق.

– يا رجل، قل كلاماً غير هذا، ألا تحقد حتى ولو بقلبك؟؟.

– ليس لي قلب.

– معقول؟.

– اسأل أهل الرابايعة.. صحيح أنا «صاحب مزاج» لكني في منتهى العقل والرزانة.

فاجأه الضابط بقوله:

– ما رأيك في الشيخ محمد حسب الله؟

– مغرور.

– لماذا؟.

– يظن أنه يستطيع إصلاح الكون.

– ولم لا ؟.

– الكون خلقه الله، وهو المتصرف فيه.

– لكنه يدعو الناس إلى الحكم بالشريعة.

– إذا حدث فسوف يجلدني، وقد يرجمني..

— وهو يجمع الشباب من حوله ويحرضهم.

— أدبوهم .. وأدّبوا أهليهم.. إنهم طائشون لا خبرة لهم بالحياة...».

ويمضي الحوار طويلاً على هذا النحو، إلى الدرجة التي يقول فيها الراعي : «الحكومة أمنا الكبيرة.. وعقوق الوالدين كبيرة من الكبائر» فيصفه الضابط بأنه مواطن صالح[1].

والمفارقة في هذا الحوار لا تحتاج إلى كثير بيان، إذ تكشف عن مدى القهر الذي تنزله السلطة بمواطنيها فتستلب إرادتهم وعقولهم وفكرهم، إلى الدرجة التي تجعل كل آمالهم تنحصر في النجاة بأنفسهم، ولو كان على حساب العقيدة والشريعة والقيم والأخلاق والمستقبل!.

ثمة قيمة فنية أخرى يحققها الحوار في روايات نجيب الكيلاني، وهي توظيف الآيات القرآنية الكريمة في ثناياه للإجابة المقنِعَة على سؤالٍ حائر، أو تعضيد فكرة ما، أو رأي ما ، والجدير هنا أن عملية التوظيف تبدو داخلة في النسيج اللغوي، وتمثل لحمة طبيعية فيه، فلا تشعر بتكلف أو نُبو، وأحسب ذلك من قدرات الكاتب في استغلال الكنوز الأدبية التراثية بصفة عامة ، والنص القرآني بصفة خاصة.

وفي المثال التالي نلمح طرفاً من ذلك، حيث يجري استجواب «أبو المجد شاهين» أمام ضابط التحقيق، حيث يقول له الضابط :

«— أسألك المظاهرة التي شاركت في قيادتها.

— الجنازة.

— بل المظاهرة.

— إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ..»[2].

---

(١) ملكة العنب، ٧٥، وما بعدها.

(٢) ملكة العنب، ٦٧، وانظر أمثلة أخرى عديدة منها على سبيل المثال : امرأة عبد المتجلي، ٣٨، ٥١ ، ٥٢، ويذكر أن «نجيب محفوظ» حاول توظيف الآيات القرآنية في بعض رواياته مثل «يوم قتل الزعيم» ورحلة ابن فطومة» مع الفارق بين النجيبين..

التضمين والاقتباس

إذا كان نجيب الكيلاني يوظف الآيات القرآنية في الحوار، فإنه يستفيد من التراث الإسلامي الأدبي كله في توظيف العناصر الملائمة، لإثراء سرده الوصفي، وزيادة الإيضاح، والتأثير على القارئ وإثارته، فهناك إلى جانب القرآن الكريم الحديث القدسي، والحديث الشريف، والدعاء، ومقولات الصحابة والصالحين، والزعماء الوطنيين، والشعر، والموال ، والأغنية، والأمثال العامية، والحكم القديمة، ومقالات الصحفيين، ومذكرات المحامين، وكل عنصر من هذه العناصر يؤدي دوره الإيجابي، في جذب مشاعر القارئ، وشده إلى التفاعل مع النص الروائي تفاعلاً إيجابياً، وفيما يلي النماذج الدالة.

في مجال توظيف الآيات القرآنية في السرد، تقدم رواية «ملكة العنب» نماذج كثيرة، منها هذا المثال عندما اختلف أهل القريتين حول زواج «براعم» من قريبها أو الشيخ «محمد حسب الله»، فإن «أبو المجد شاهين يرفع كفيه إلى السماء ويقرأ من القرآن» ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ صدق الله العظيم» ، ثم يقول : «فلتتجهوا بقلوبكم وأرواحكم إلى مالك الملك وحده»[1].

وقد رأينا من قبل نموذجاً لتوظيف الآيات القرآنية في الحوار، وتوجد نماذج عديدة تتحقق فيها أهمية النص القرآني الدال على الموقف أو العبرة سواء في السرد أو الحوار.

بيد أن الكاتب يقدم جديداً مفيداً عندما يوظف الحديث القدسي ــ ربما لأول مرة في الرواية العربية ــ بصورة تحقق دلالة عميقة وإقناعاً كبيراً، في سياق تنبيه الأذهان إلى معادلات منسية، تأمل «أبو المجد شاهين»، وهو يرد على المخبرين في المباحث حين قالوا إنهم يخشون قطع عيشهم لو لم يستجيبوا للأوامر الظالمة!.

«يا أبنائي المساكين.. إنهم لا يملكون رزقاً لأحد، ألم تسمعوا الحديث القدسي

---

(١) ملكة العنب، ١٧١ ١٧٢.

الذي يقول : أنا أرزُق ويُعبد غيري؟»[1].

ويوظف الكاتب أيضاً، الحديث الشريف ليؤدي الغاية نفسها، وها هو عبد المتجلي يقول للضابط الذي يعذبه :

«يقول سيدي وسيدك : من روع آمناً روعه الله يوم القيامة» [2].

ويلحق بتوظيف الحديث القدسي والحديث الشريف، توظيف الدعاء، الذي يعبر عن حالة من يدعو، وفي الوقت ذاته يجعل الشخصية المتدينة في الرواية أكثر اقتراباً من تحقيق الأمل، وأكبر قدرة على تحدي المحن والعقبات، ولتتأمل ما يقوله أبو المجد شاهين في جوف الليل قرب الفجر، عندما اشتدت محنته :

«إلهي نامت العيون، وهدأت الجفون، وأنت حي قيوم، لا تأخذك سنة ولا نوم.. إلهي فسدت الأحوال، فلا تفتنا في ديننا، ولا تحرمنا ثواب ابتلائك لنا»[3].

أما التضمين بالشعر، فيأخذ مجالاً رحباً في روايات نجيب الكيلاني بعامة، وفي رواياته التي بين أيدينا بخاصة، وهي عملية تلوين السرد، وتوكيد للمعاني، وارتقاء بخيال القارئ ووجدانه إلى سماء الشعر، وغالباً ما يستدعي أبياتاً للمشهورين من الشعراء، وبخاصة شوقي والمتنبي والخيام والبوصيري والإمام البرعي، ومنها :

«الدين يسر والخلافة بيعة   والأمر شورى والحقوق قضاء»[4]

«يا راحلين إلى (منى) بجياد   شوقتموا يوم الرحيل فؤادي»[5]

«أمن تذكر جيران بذي سَلَم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم»[6]

---

(١) السابق، ٦٥/٦٦.

(٢) اعترافات عبد المتجلي ، ١٢٠.

(٣) ملكة العنب، ١٠٢.

(٤) اعترافات عبد التجلي، ١١٩.

(٥) قضية أبو الفتوح الشرقاوي ، ٣٨.

(٦) السابق، ٤١.

«عذ بظهر الغيب واليوم لي وكم يخيب الظن في المقبـــل
ولست بالغافل حتـى أرى جمال دنياي ولا أجتلـــي »[1]

بيد أن نجيب الكيلاني، يعطي للزجل أو الموال اهتماماً كبيراً يعادل اهتمامه بالشعر، إن لم يفقه، ولعل ذلك يرجع إلى ارتباط الوجدان المصري بالموال وما فيه من نفحة حزينة تلمس وترا حساساً في مزاج المصريين ونفسيتهم، وتعبر عن تجاربهم المريرة في التاريخ والحاضر، وغالباً ما يكون الموال تعبيراً عن موقف صلب يمر به البطل، وفي الوقت ذاته يقوم بدور الترويح عن القارئ، وتخفيف سرعة الإيقاع العنيف للأحداث، وبخاصة حين يأتي الموال على لسان المغني أو المنشدين من خلال المدّ والتكرار.

أنا رايـح للحسيـــــــن أشكـي لـه بلوتين
آه .. وأقول له يا حسين يا للي جدك النبي.. النبي ... النبي[2]

أيضاً، فإن الموال يأتي أحياناً ليعبر عن رغبات دفينة بالتحرر من القيود والمحافظة على الكرامة، اتساقاً مع المواقف الروائية :

عجبي على نسر جارح في العلالي طار
مالوش مثيل في البراري وِخَدُّهْ فِ السحايب دار .. السحايب
عاشق نجوم السما، والبدر، والنسمة
لا يوم يطاطي ولا يرضى بعيشة العار[3]

وقد يكون الموال تورية عن حالة خوف وعدم قدرة على التصريح بما يدور في النفوس:

امبارح العصر جاني الحب في قلبي

---

(١) اعترافات عبد المتجلي ، ٥٢.

(٢) السابق، ٤٢.

(٣) امرأة عبد المتجلي، ٦٠.

خايف أقول آه من اللي قاعدين جنبي[1]

أما الأغنية فتأتي للتعبير عن حالة يعيشها البطل، أو وسيلة من وسائل الانتقاد الساخر، مثلما نرى من حديث عبد المتجلي عن أغنية قديمة في بداية الثورة يرنّ صداها في أذنه «خلّي الثورة تولع نار» حيث يقول: «لا أتذكر إلا كلمة تولع نار.. تولع نار»[2]، والإشارة واضحة إلى النار التي أشعلتها الثورة في النفوس والقلوب بسبب المآسي والمظالم التي ألحقتها بالأبرياء.

وهنا قد يعاود الاعتراض الذي سبقت الإشارة إليه حول العامية إلى الظهور مرة ثانية، سواء تعلق بعامية الموال أو الأغنية، وهو اعتراض وجيه، ولكن الواقع يقرر أن دلالة الموال والأغنية في السياق الروائي، والمواضع التي وردا فيها، كانت من أبلغ وأعمق الدلالات بالنسبة للقارئ المصري... أما القارئ العربي خارج مصر، فلا ريب أنه سيفقد قدراً لا بأس به من المعاني التي يقصدها الكاتب.

أما التضمين بالمقال، فيأتي في سياق رصد الأحداث الجارية ومعالم الصراع الاجتماعي وملامحه، ومثال ذلك ما أورده الكاتب، مما كتبته صحف الصباح عن الإفراج عن أهل الربايعة:

«انتصر فكر الربايعة، وانهزمت الدبلوماسية المحترفة، كيف يستطيع الجلادون إخفاء وجوههم القبيحة؟. وكتب أحد كبار الصحفيين يقول:

إن المظاهرة التي حدثت في قرية الربايعة تؤكد الحس الوطني الصادق، وسلامة الوعي الجماهيري في القضايا العربية والدولية، وليس في الأمور المحلية وحدها...الخ»[3].

ومثل المقال مذكرات المحامين ومرافعاتهم التي تعد وسيلة من وسائل الهجاء السياسي للسلطة وكشف وحشيتها ضد المواطنين الأبرياء كما نرى في مذكرة الأستاذ الخشاب المحامي:

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ١٠٣.

(٢) امرأة عبد المتجلي، ١٥.

(٣) ملكة العنب، ، ١١٣.

- لا جريمة، وما جرى لأبو الفتوح تلفيق.

- الجريمة هي اغتيال حقوق الإنسان وإهدار حرياته وكرامته وشرفه وأمنه.

- السلطات الأمنية استغلت الحرب والأحكام العسكرية للتنفيث عن شذوذها وشهوتها في التسلط والقهر وإنفاذ سياسة القطيع.

- أبو الفتوح ليس وحده الذي عانى ويعاني، فهناك الملايين من الجرائم التي تتم في الظلام تحت ظلال الطوارئ والأحكام العسكرية.

- أطالب بتحرير الملايين المضطهدة الفقيرة من سجن الاستعمار الداخلي المتمثل في سياط العسكر، ومن سجن الاستعمار الخارجي الذي جثم على أرضنا عشرات السنين.

- الطريق أمامنا هو منهج النبي صلى الله عليه وسلم وشريعته الغراء[1].

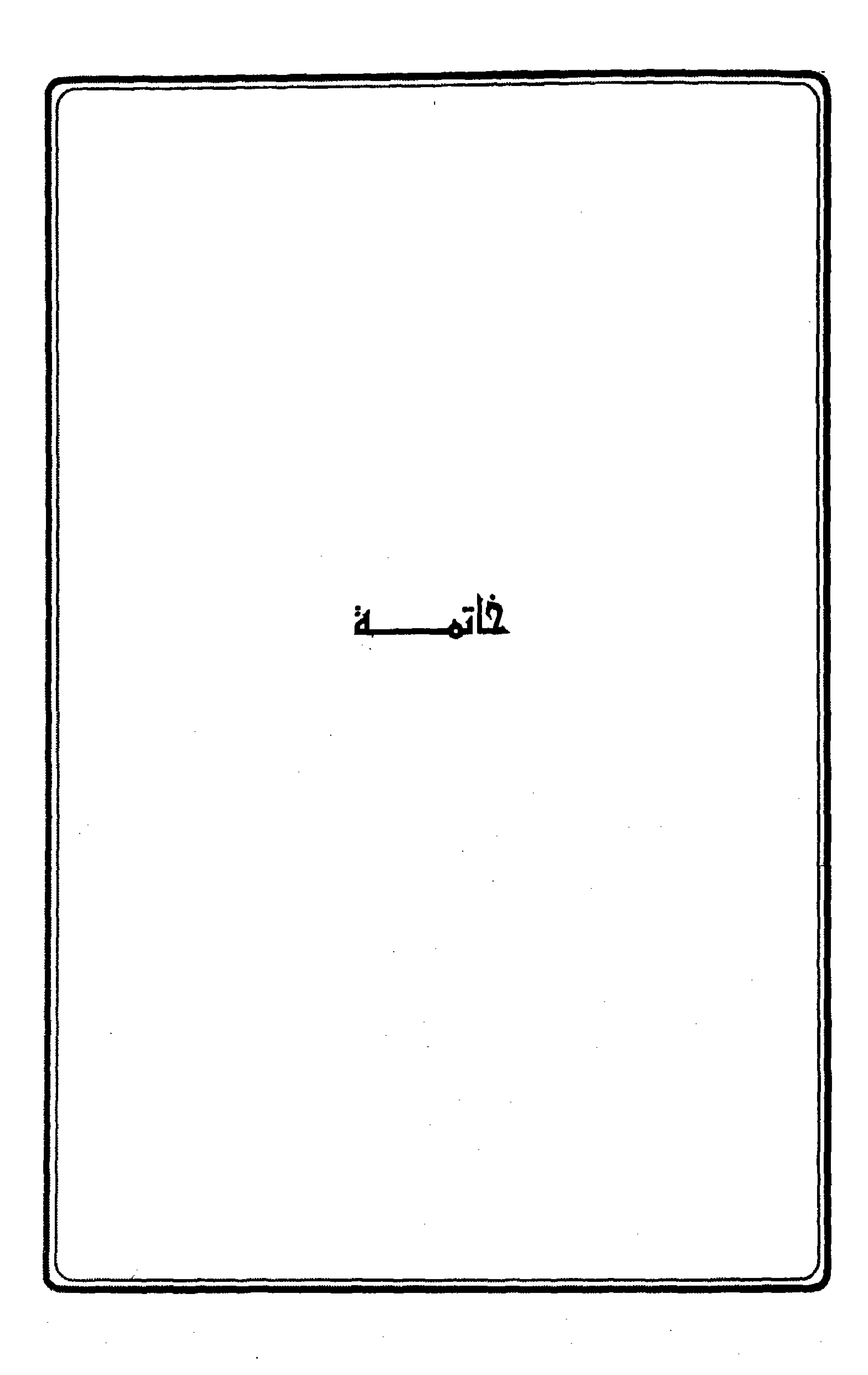
ويلاحظ بصفة عامة أن التضمين، وبخاصة التضمين بالمقال والمذكرات يعد نوعاً من التفكير العقلي أو الخطاب المباشر أو الكلام بصوت عال، ولكن الشكل الذي جاء في سياقه يدخله إلى مجال الفن، بل يجعله عنصراً مهماً يكسر حدة السرد كما قلنا من قبل، ويضيء جوانب مهمة في الشخصية أوالحدث، ويعطينا بصورة ما دلالة على وعي الكاتب ومخزونه الثقافي.

وبعد..

فإن أسلوب نجيب الكيلاني يمثل السهولة والبساطة، ولكنها السهولة الممتنعة، والبساطة المتميزة، وفي كل الأحوال ، فإنه يوصل أفكاره ورؤاه بطريقة فنية محكمة، فيها أصالة الفنان، وحكمة المفكر، وشجاعة المجاهد.

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ١٠٦/١٠٧، وانظر أيضاً : ٨٢/٨٣.



خاتمة

خاتمة

رأينا فيما سبق أن الواقعية الإسلامية لدى «نجيب الكيلاني» تعني الانتماء لقضايا الأمة والاهتمام بشؤون الناس وأمورهم، ومواجهة المشكلات الخطيرة التي يعانون منها بطريقة جادة وواثقة.. لذا دارت أحداث رواياته في بيئة يتعرض أهلها عادة للظلم والقهر، ويعانون الفقر والقمع، ويعيشون بين مطرقة الخوف وسندان النفاق.. وقد قدم الكاتب نماذج لشخصيات مؤمنة تجعل غاياتها إرضاء الله قبل إرضاء الناس، وتحتسب عنده ما تلاقيه من عنت واضطهاد، كما قدم نماذج أخرى لشخصيات انحرفت عن المنهج السليم، واستسلمت للغواية، وخدمت الشيطان، فقهرتْ، وظلمتْ، وتوحشت ولكن النتيجة لم تكن في صالحها لأن الشر مهزوم لا محالة.

وقد استفاد الكاتب من العناصر المتاحة لبناء الحوادث في رواياته وتسلسلها، فجاءت الحبكة عموماً محكمة ومتقنة، وساعده في خبرته الطويلة بالفن القصصي..

أما أسلوبه ولغته، فيدلان على وعي عميق بطبيعة البيان العربي، مع سيطرة جيدة على المعجم اللغوي الغزير، واستخدام موفق للعناصر التراثية في وصفه وسرده.

إن روايات نجيب الكيلاني، تبعث الأمل في انتشار أدب إسلامي قوي، يحقق إلى جانب شرف الموضوع جودة الأداة، وهو ما يحثنا أيضاً على مزيد من القراءة في أدب الرجل، وأدب غيره من الأدباء الإسلاميين المرموقين ،وتشجيع المواهب الشابة التي تسعى لخدمة الدين وتملك الموهبة الأصيلة. والله من وراء القصد.

ملحق

نجيب الكيلاني

سيرة في صور

لا تحتمل هذه الدراسة التأريخ لنجيب الكيلاني، وتناول سيرته أو ترجمة حياته بالتفصيل، نظراً لأن الموضوع بحث نقدي يدرس ظاهرة معينة في أدبه.. ومن ثمّ رأيت أن يكون هذا الملحق المصور بديلاً عن الترجمة والسيرة والتأريخ في آن.. فهو من ناحية يعطي بعض الملامح لمحطات بارزة في حياة الرجل الذي لا تعرف عنه الأجيال الجديدة إلا إنتاجه الأدبي المتاح، ومن ناحية ثانية يجنب الدراسة التي بين أيدينا أثقال موضوع لا تحتمله، وهو التعريف بنجيب الكيلاني .

لقد آثرت أن أحقق بهذا الملحق رغبة عزيزة لنجيب الكيلاني قبل أن يلحق بجوار ربه في الخامس من شوال ١٤١٥هـ (٤مارس ١٩٩٥م)، وهي أن تظهر بعض الصور التي اختارها بعناية من بين أوراقه ومحفوظاته ملحقة بهذا البحث، وكان قد تمنّى أن يقرأه مطبوعاً قبل رحيله، ولكن القدر كان أسبق، والرحيل كان أسرع.

في هذه الصور دلالات واضحة على جهده وجهاده في المجالين العلمي والأدبي.. فقد كان في مجال تخصصه العلمي (الطب) نشيطاً وإيجابياً وفعالاً، يحضر المؤتمرات، ويشارك في الندوات، ويقود الحملات الصحية لمكافحة المخدرات والإدمان والأمراض المتوطنة.. وفي ميدان هوايته الأدبي كان مثالاً للرائد المؤمن الذي بذل كل ما يستطيع لتأصيل فن القصة الإسلامية في أدبنا الحديث.. وإذا كان هذا النشاط الأدبي قد جعل القوى المهيمنة على الثقافة في عالمنا العربي تتجاهله وتعتّم عليه وتجحد دوره، فإن رابطة الأدب الإسلامي العالمية قد كرّمته وأهدته درعها في احتفال مهيب بجمعية الشبان المسلمين.

إن الصور تقدم لنا أيضاً نجيب الكيلاني الإنسان. . الذي تتألق إنسانيته محبة ومودة وصفاءً، وبخاصة إذا لاعب أحفاده أو جلس مع أقاربه وأصدقائه.

وآمل في الختام أن تكون هذه السيرة المصورة دافعاً للترجمة التفصيلية، ودراسة جوانب أخرى في حياة الراحل الكريم، يرحمه الله.

جمهورية مصر العربية

وزارة الداخلية

بطاقة عائلية

صادرة طبقاً لأحكام القانون رقم ٢٦٠ لسنة ١٩٦٠ المعدل بالقانون رقم ١١ لسنة ١٩٦٥ في شأن الأحوال المدنية

رقم البطاقة	مكتب سجل مدني	محافظة
٢٠٥٣٢	الجيزة	الجيزة

تاريخ صدورها ١٩٦٢/٦/١٣

ينتهي العمل بهذه البطاقة يوم ....

توقيع محرر البطاقة ....

توقيع أمين السجل ....

ى ٦١٥٢٩٦

الاسم الكامل نجيب الكيلاني عبد اللطيف

اسم الوالد الكيلاني ...... اللقب أو الجد عبد اللطيف

اسم الوالدة ولقبها ....

تاريخ ومحل الميلاد أول يونيه ....

الديانة مسلم

الوظيفة أو المهنة طبيب

محل العمل ....

محل الإقامة ....

محل ورقم القيد ....

فصيلة الدم A

توقيع صاحب البطاقة ....

توقيع آخذ البصمة ....

نجيب الكيلاني : بطاقة عائلية



بسم الله الرحمن الرحيم

الإمارات العربية المتحدة

وزارة الصحة

شهادة تقدير

يسر وزارة الصحة أن تقدم خالص شكرها وتقديرها

إلى الدكتور نجيب الكيلاني

للمشاركة في فعاليات الاحتفال بمرور ٤٠ عاماً على

إنشاء منظمة الصحة العالمية مما كان له أكبر

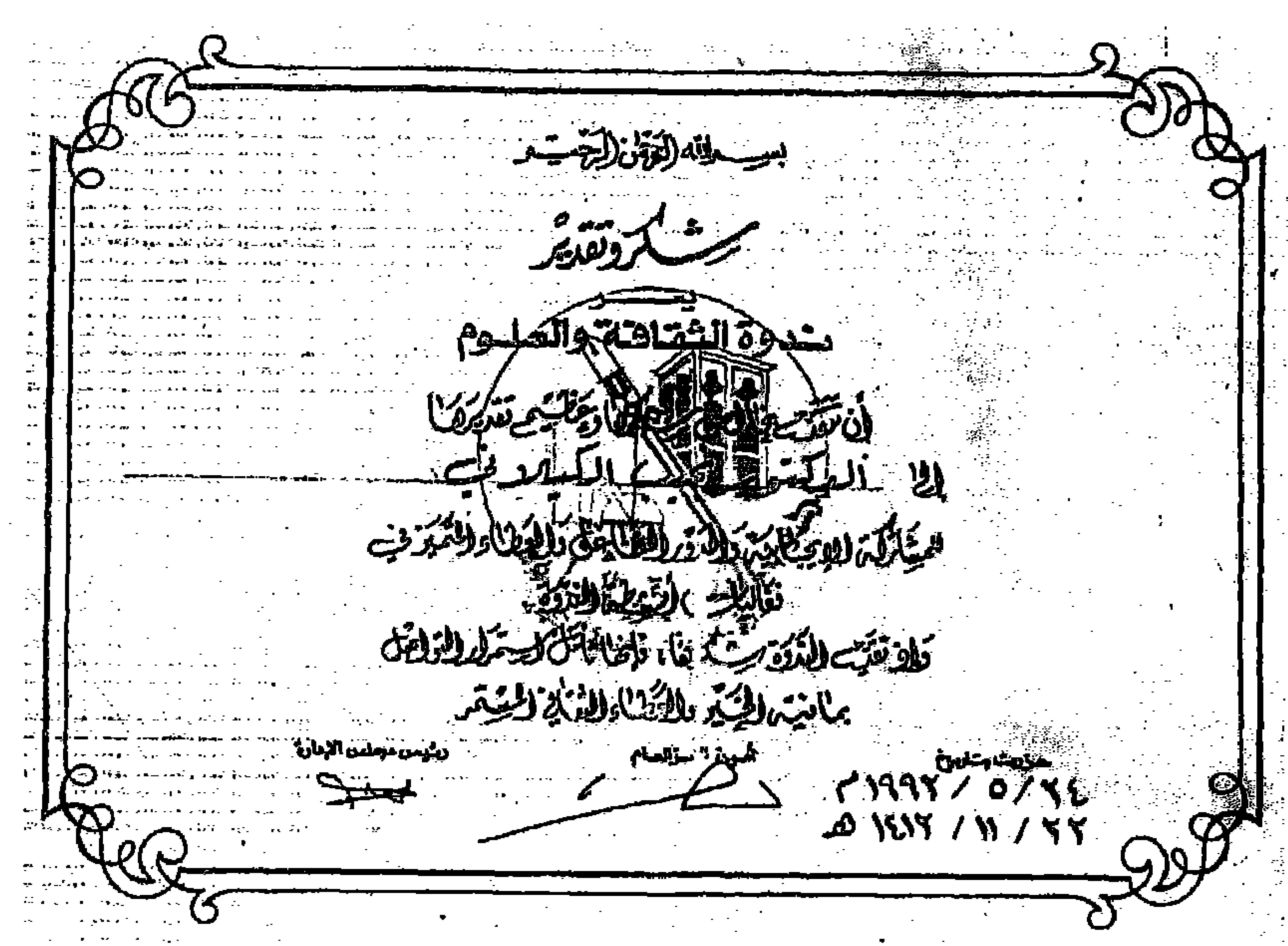
الأثر في إنجاح هذا الاحتفال.

وزير الصحة

أبوظبي ١١ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ

١٩ ديسمبر ١٩٨٨ م

شهادة تقدير من وزارة الصحة في دولة الإمارات العربية المتحدة بمناسبة الاحتفال بمرور ٤٠ عاماً على إنشاء منظمة الصحة العالمية – ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨م



بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

يسر

ندوة الثقافة والعلوم

أن تتقدم [illegible] تقديرها

إلى [illegible] الكيلاني

لمشاركته الإيجابية [illegible] في

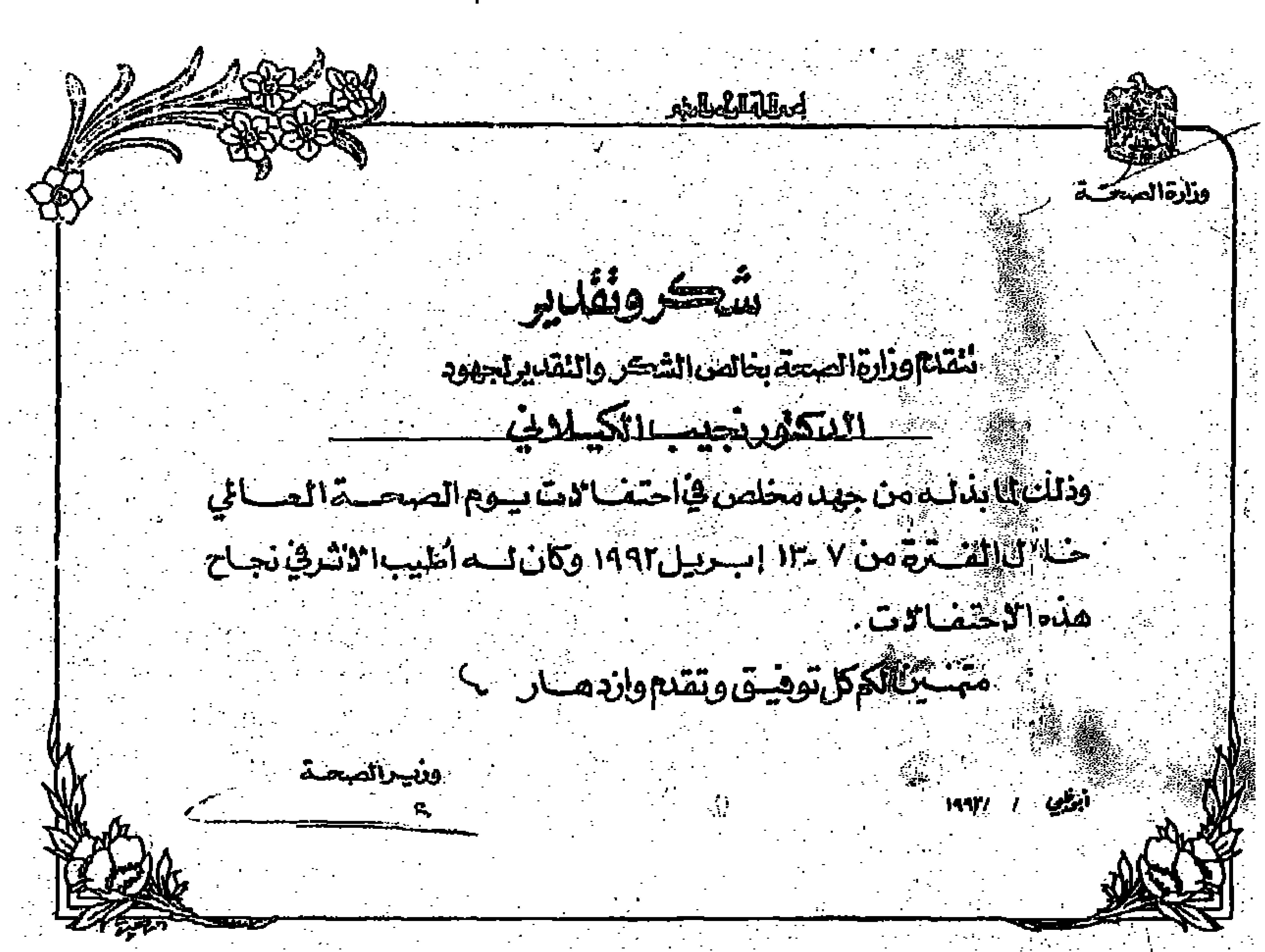
فعاليات أنشطة الندوة

[illegible]

[illegible]

رئيس مجلس الإدارة	الأمين العام	حرر في تاريخ
		٢٤/ ٥/ ١٩٩٢م
		٢٢ / ١١ / ١٤١٢ هـ

شكر وتقدير من ندوة الثقافة والعلوم على مشاركته الإيجابية في أعمالها — ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م



بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الصحة

شكر وتقدير

تتقدم وزارة الصحة بخالص الشكر والتقدير لجهود

الدكتور نجيب الكيلاني

وذلك لما بذله من جهد مخلص في احتفالات يوم الصحة العالمي خلال الفترة من ٧ - ١٣ إبريل ١٩٩٢ وكان له أطيب الأثر في نجاح هذه الاحتفالات.

متمنين لكم كل توفيق وتقدم وازدهار،

وزير الصحة	أبوظبي / / ١٩٩٢

وثيقة شكر وتقدير من وزارة الصحة في دولة الإمارات العربية المتحدة عن جهوده بمناسبة يوم الصحة العالمي — عام ١٩٩٢م



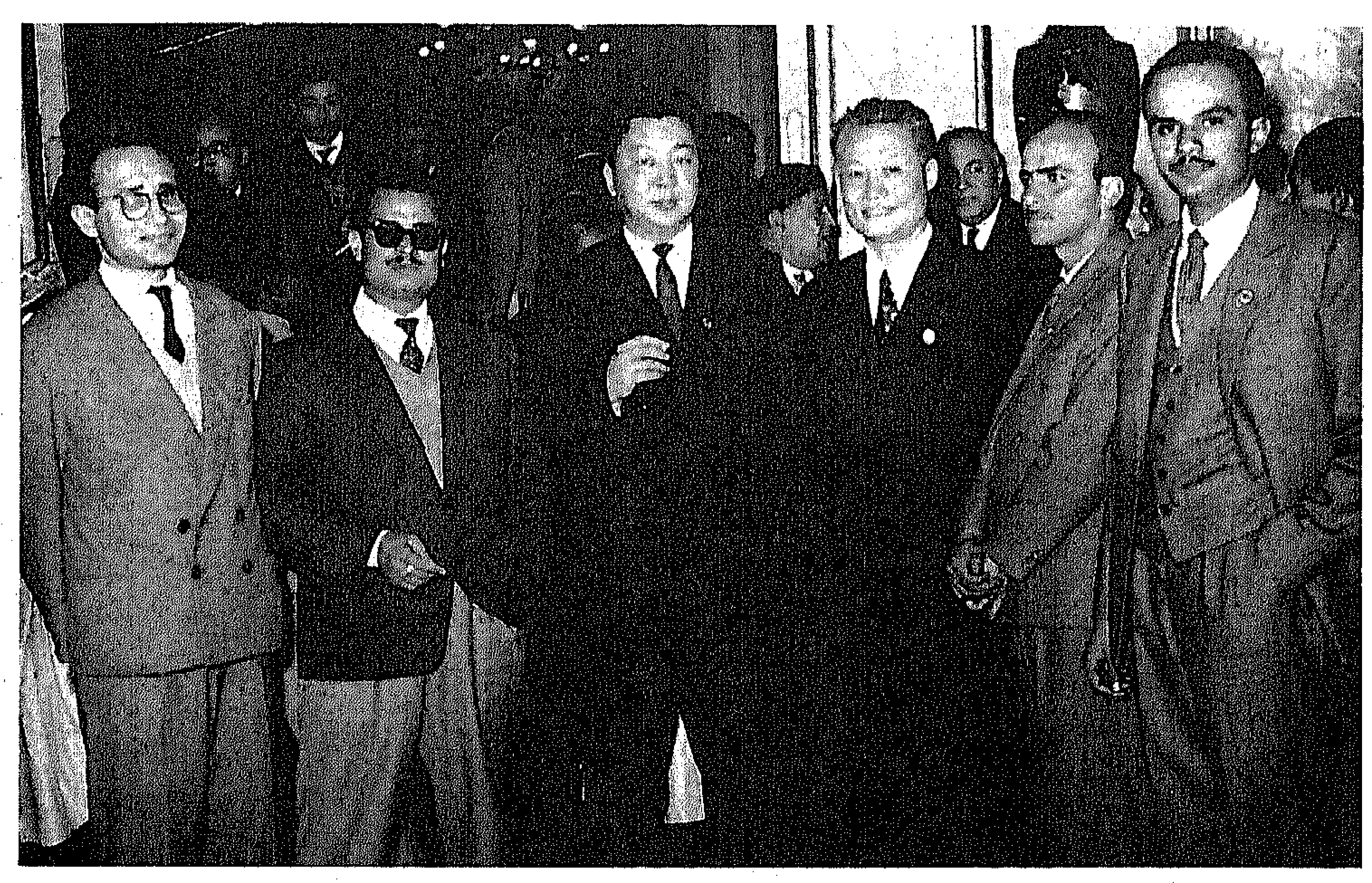
في أحد مؤتمرات وزراء الصحة العرب لدول الخليج



في قيادته حملة مكافحة المخدرات بمنطقة الخليج



في حفل تكريمه بمناسبة تقاعده ١٩٩٢



مع أعضاء مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا عام ١٩٦٢م – [الثاني على اليسار]



بين الشاعر محمد التهامي (على اليمين) والشاعر عبد المنعم عواد يوسف (على اليسار)



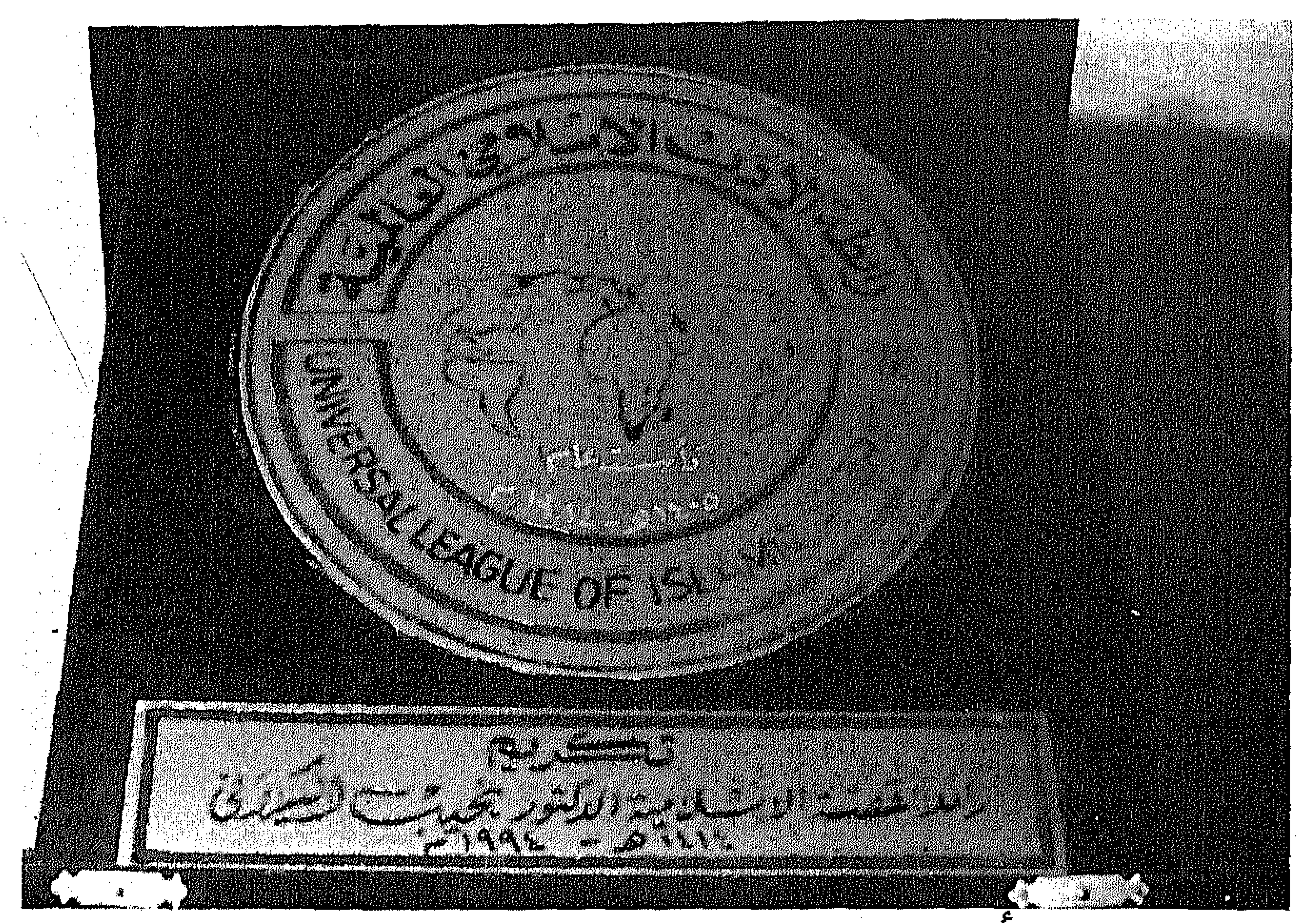
يلقي محاضرة في النادي الأدبي بالمدينة المنوّرة



يتسلم درع رابطة الأدب الإسلامي من الدكتور حسن عباس زكي وزير الاقتصاد الأسبق، والرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين، وعلى اليسار أحد أعضاء الرابطة.



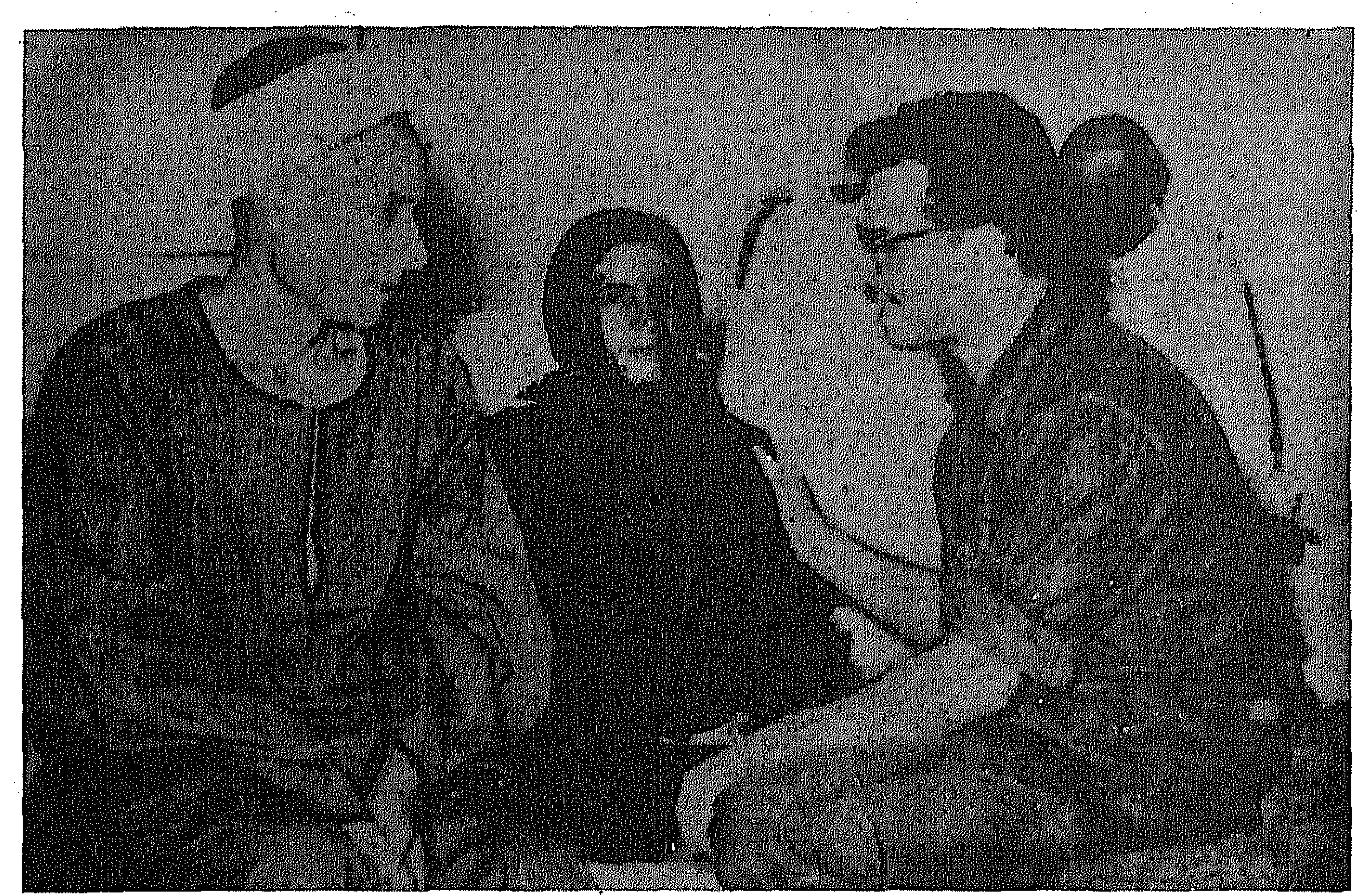
مع الدكتور عبد القدوس أبو صالح نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي وبعض الأدباء في حفل تكريمه بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة في ١٩٩٤/١/٢٧.



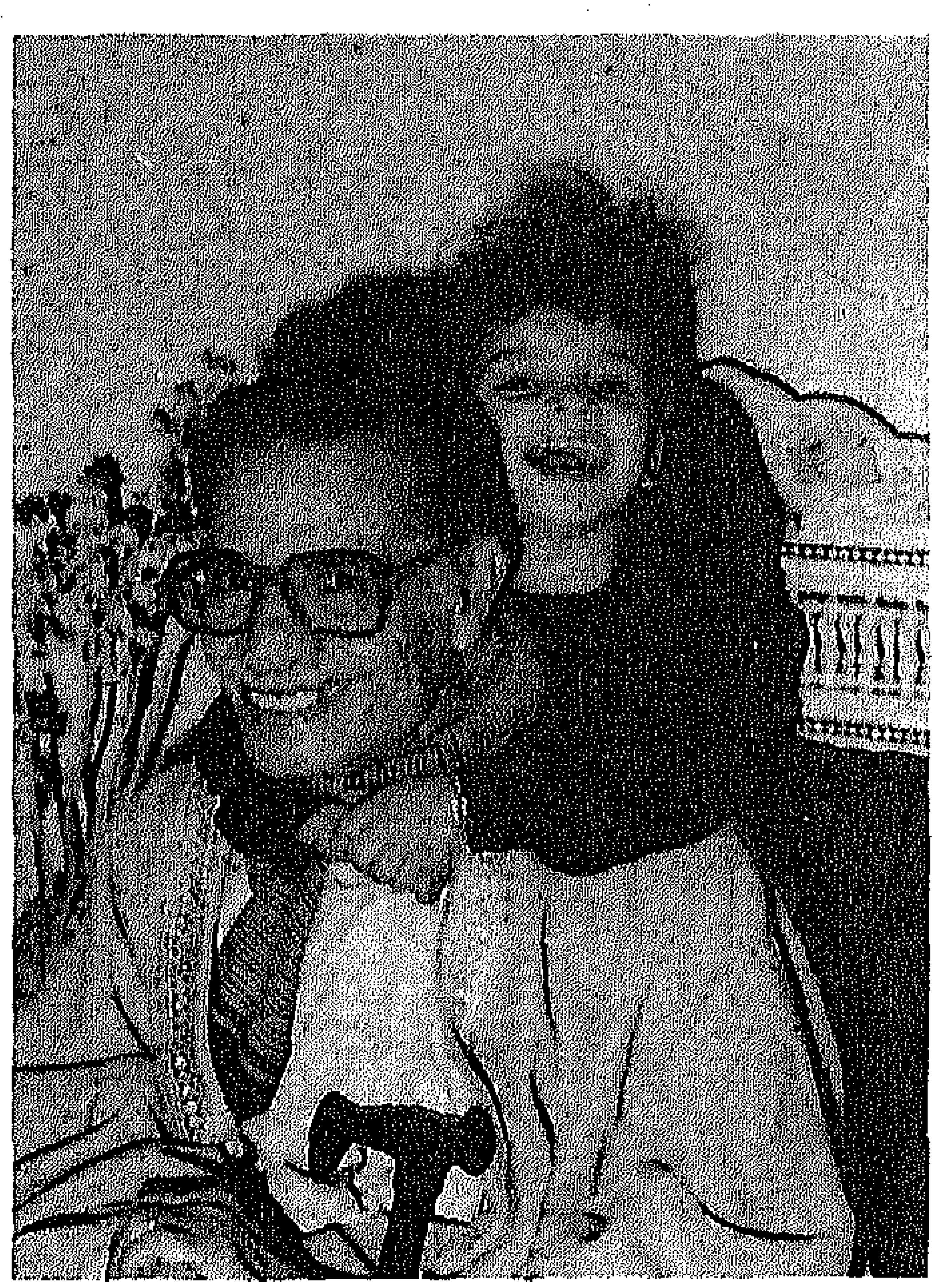
درع رابطة الأدب الإسلامي العالمية بوصفه رائد القصة الإسلامية الحديثة :
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.



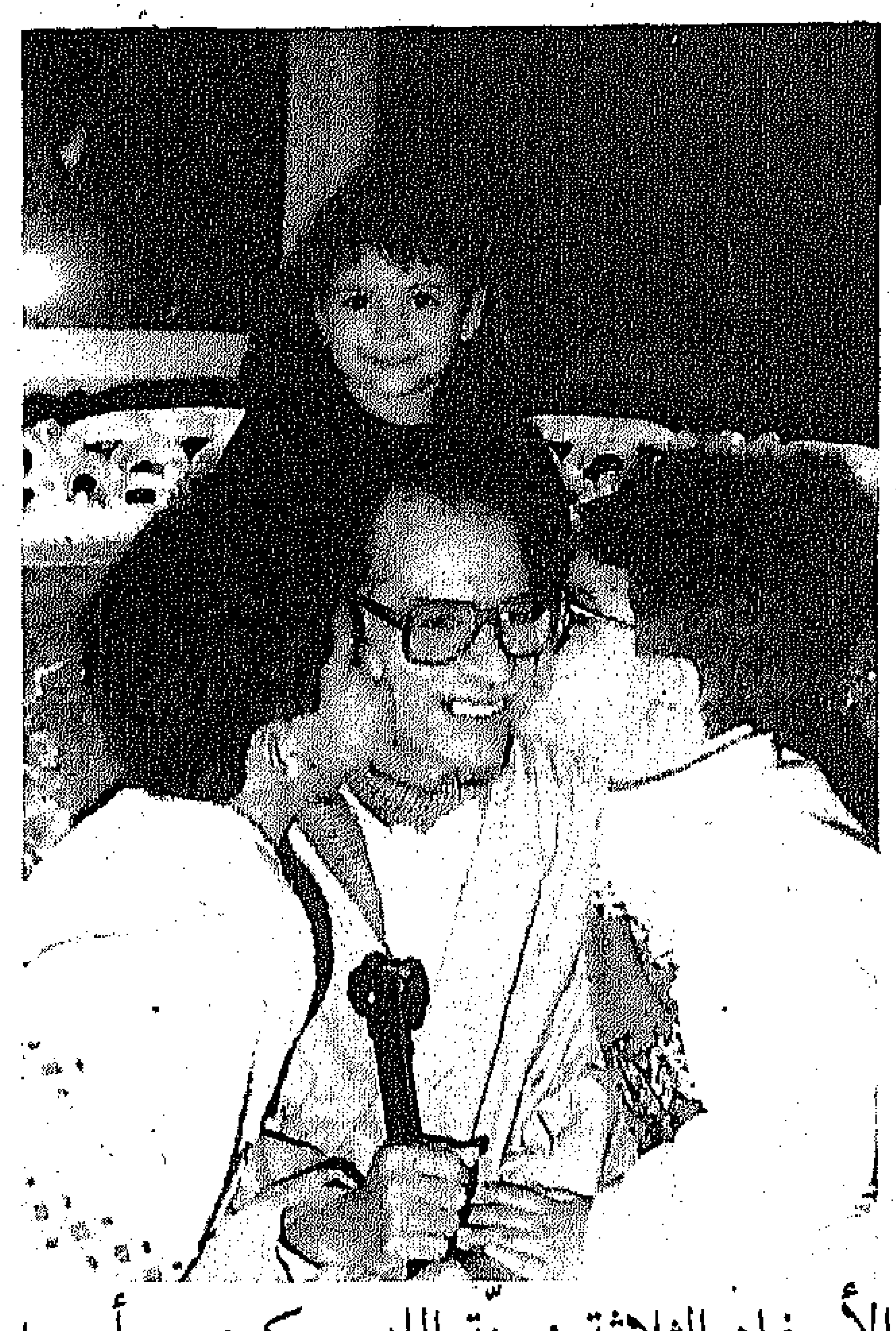
أوسمة ونياشين عديدة



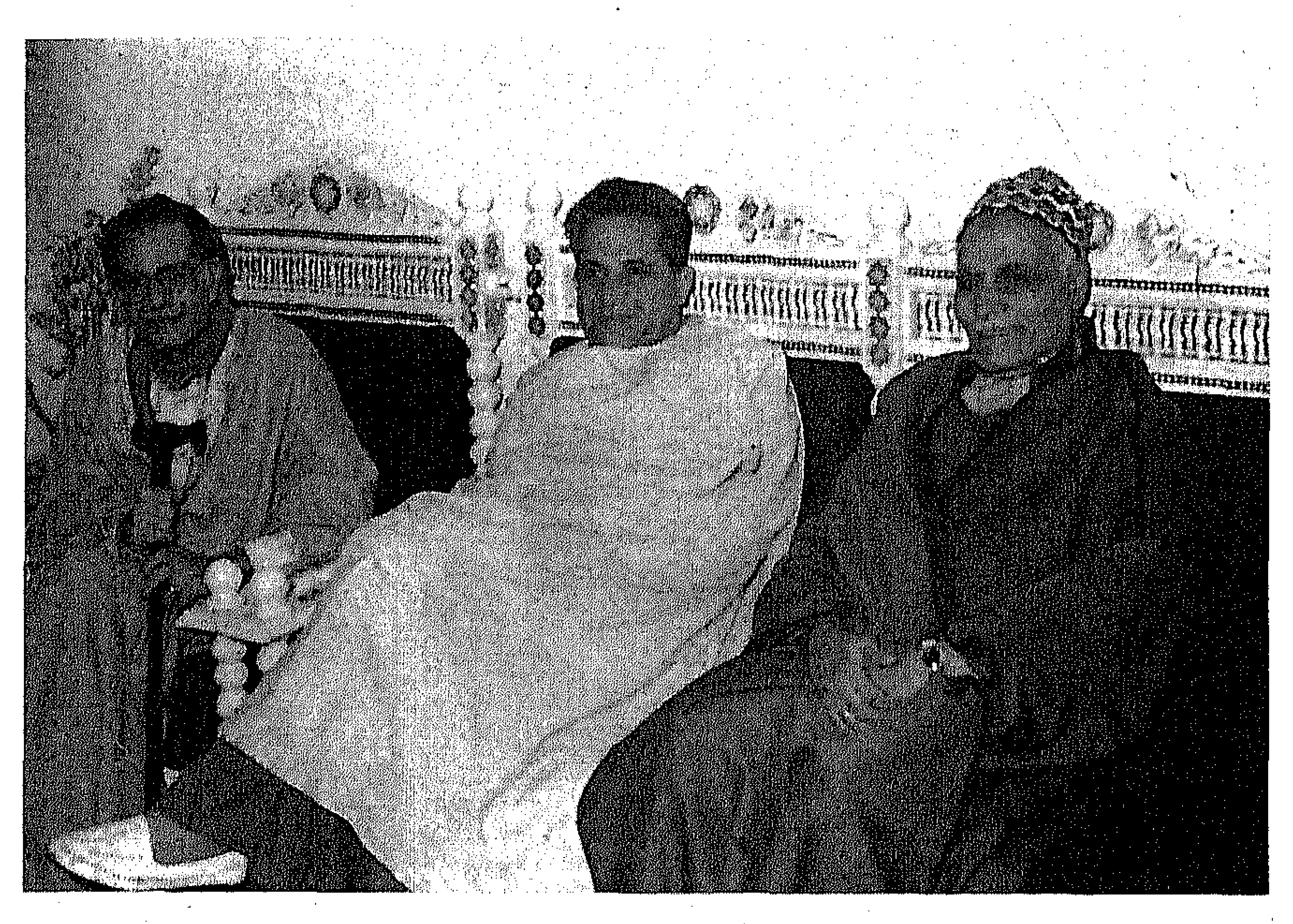
صورة نادرة مع والديه، وهما يزورانه بسجن القاهرة ١٩٥٨/٣/٢١.



مع الحفيدة «منّة الله» ابنة جلال نجيب ... أقرب الأحفاد إلى قلبه.. وقد ظفرت بإحدى قصائده التي يعبّر فيها عن فرحه بمولدها.



الأحفاد الثلاثة : منّة الله – كريم – أحمد



مع شقيقه د. محمد الكيلاني وصديقه مصطفى عبد الحافظ



ليلة عرس ولده الأصغر «محمود»



مع عُمّال ورش السكك الحديدية، التي عمل بها طبيباً في مطلع حياته العملية.

المصادر والمراجع

* روجر.ب. هينكلي وصلاح رزق، في قراءة الرواية : تصوّر منهجي ودراسات تطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٨.
* عبد الباسط بدر، مذاهب الأدب الغربي ـ رؤية إسلامية، منشورات لجنة مكتبة البيت وشركة الشعاع للنشر، الكويت، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.
* علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، مجلة النور ومؤسسة بافاريا، الكويت ـ ألمانيا، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م.
* طه محمود طه، القصة في الأدب الإنجليزي من «بيوولف» حتى فينيجا نزويك، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦م.
* محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.
* محمد يوسف نجم، فن القصة، ط٧، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩.
* نجيب الكيلاني :
ـ الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م.
ـ مدخل إلى الأدب الإسلامي، كتاب الأمة، قطر، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.
ـ اعترافات عبد المتجلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢ هـ ١٩٩١م.
ـ امرأة عبد المتجلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.
ـ قضية أبو الفتوح الشرقاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.
ـ ملكة العنب، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.

كتب للمؤلف

إسلاميات :

* مسلمون لا نخجل (طبعة ثانية).
* الحرب الصليبية العاشرة.
* العودة إلى الينابيع.
* ثورة المساجد : حجارة من سجيل.
* بلطجي العراق.
* جاهلية صدام وزلزال الخليج.
* الصلح الأسود.. والطريق إلى فلسطين.
* واسلمي يا مصر.
* حفنة سطور : شهادة إسلامية على قضايا الأمة.
* أهل الفن وتجارة الغرائز.
* حراس العقيدة (طبعة ثالثة).

إعلام :

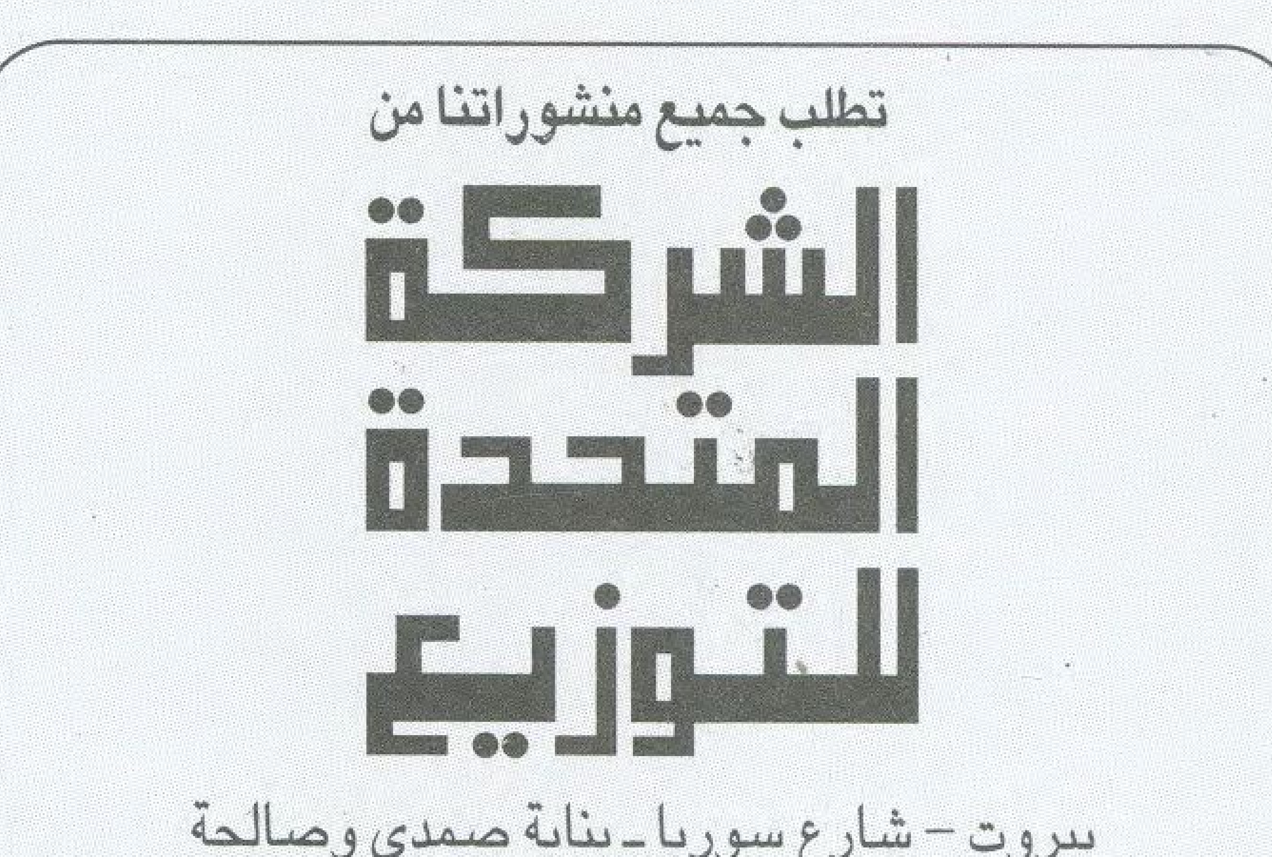
* الصحافة المهاجرة : رؤية إسلامية (طبعة ثانية).

أدب ونقد :

* الغروب المستحيل : سيرة كاتب (محمد عبد الحليم عبدالله).
* رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان).

* موسم البحث عن هوية : دراسات في الرواية والقصة.
* الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان).
* مدرسة البيان في النثر الحديث.
* محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر العربي الحديث.
* القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث.
* الرواية التاريخية في أدبنا الحديث.
* الحداثة تعود.
* الورد والهالوك : شعراء السبعينات في مصر.
* لويس عوض : الأسطورة والحقيقة.
* الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني.

الفهرس


تطلب جميع منشوراتنا من
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص. ب ٧٤٦٠ - برقيا: بيوشران

